

الفصل الثاني

اتساع الدلالة لأسباب صرفية

إن البناء الصرفي لكثير من المفردات القرآنية أسهم في توسيع الكثير من دلالات الخطاب القرآني، ويمكننا أن نرصد ذلك في دلالة الوزن الصرفي للكلمة على عدد من الصيغ الصرفية، وكذلك في دلالة على صيغة صرفية ومعنى معجمي من جذر واحد، وأيضاً نلمس ذلك في تعدد معاني الصيغة الصرفية، وفي دلالة الصيغة الواحدة على معنيين مختلفين من جذر لغوي واحد، وفي دلالة صيغة الفعل على زمنين ماض ومضارع، أو لازم ومتعد في آن معاً، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولاً - دلالة الوزن الصرفي على عدد من الصيغ الصرفية:

قد ترد الكلمة الواحدة في سياق ما تحتل أوجهاً بحسب بنيانها وتقليب النظر في جوانبها، وربما تتساوى فيه قوة المعاني المحتملة وربما تفاوتت، وقد ناقش ابن جني هذه المسألة في خصائصه فيما أسماه (باب في اللفظ يرد محتملاً لأمرين أحدهما أقوى من صاحبه أيجازان جميعاً فيه، أم يقتصر على الأقوى منهما دون صاحبه؟) بين فيه أن

كلا الوجهين يمكن أن يكون مراد القائل، وضرب لذلك أمثلة، ولا شك في أن البليغ تكثر معانيه وتقل ألفاظه.

يقول ابن جني: "اعلم أن المذهب في هذا ونحوه أن يعتقد الأقوى منهما مذهباً. ولا يمتنع مع ذلك أن يكون الآخر مراداً وقولاً. من ذلك قوله:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

فالقول أن يكون (ناهيًا) اسم الفاعل من نهيت؛ كساع من سعت، وسار من سريت. وقد يجوز مع هذا أن يكون (ناهيًا) هنا مصدرًا كالفالج والباطل والعاثر والباغز ونحو ذلك مما جاء فيه المصدر على (فاعل)، حتى كأنه قال: كفى الشيب والإسلام للمرء نهيًا وردعًا. أي: ذا نهى، فحذف المضاف وعلقت اللام بما يدل عليه الكلام... وكذلك قوله:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

فظاهر هذا أن يكون (جوازيه) جمع جازٍ أي لا يعدم شاكراً عليه، ويجوز أن يكون جمع جزاء أي لا يعدم جزاء عليه^(١).

وقد سلك الخطاب القرآني هذا السبيل في توسيع الدلالة في العديد من الآيات الكريمة، نستجلي فيما يلي نماذج منها:

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦/٢].

المستقر في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ قد يكون بمعنى الاستقرار، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢/٧٥]، وقد يكون بمعنى المكان الذي يستقر فيه، كقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤/٢٥]، وأكثر المفسرين حملوا الآية

على المعنيين المصدر واسم المكان، والمعنى: أنها مستقركم أو استقراركم حالتي الحياة والموت، يقول الألوسي: "والمستقر: اسم مكان أو مصدر ميمي، ويحتمل على بعد كونه اسم مفعول بمعنى ما استقر ملككم عليه وتصرفكم فيه، وأبعد منه احتمال كونه اسم زمان"^(١).

فالآية محتملة للوجهين بل هما -والله أعلم- مرادان معاً ففي الأرض مستقركم واستقراركم حالتي الحياة والموت، وبدل أن يُعبّر عن المعنيين بعبارتين، جمعهما بصيغة صرفية واحدة تحتملها معاً، فكثر المعنى وقلّ اللفظ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤/٢].

﴿وَالْفُلْكِ﴾ بالضم: السفينة تذكر وتؤنث، وتقع على الواحد والجمع، قال الله في التوحيد والتذكير: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩/٢٦]، فذكر ﴿الْفُلْكِ﴾ وجاء به موحداً. وقال ﴿وَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ﴾ [فاطر: ١٢/٣٥]، فجمع وأنث.

أما قوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ فقد جاء مؤنثاً، ويحتمل أن يكون واحداً وجمعاً. يقول ابن الجوزي: "﴿وَالْفُلْكِ﴾: السفن. قال ابن قتيبة: الواحد والجمع بلفظ واحد"^(٢)، فبدل أن يقول: (والسفينة أو السفن التي تجري في البحر) جعل الأفراد والجمع بلفظ واحد هو الفلك، مستفيداً من الخصائص الصرفية للفظ.

(١) روح المعاني: ٢٣٦/١.

(٢) زاد المسير: ١٦٨/١.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨/٣].

قوله: ﴿تُقَنَّةً﴾ يحتمل أوجهاً في الدلالة مختلفة باختلاف تقليب النظر في البنية الصرفية للكلمة وتقدير الإعراب:

أولها: أن تكون مصدراً محذوف الزوائد، يقول الألوسي: "وهو اسم مصدر الاتقاء، وأصله وَقِيَّةٌ فحذفت الواو التي هي فاء الكلمة تبعاً لفعل (اتَّقَى) إذ قلبت واوه تاء ليتأتى إدغامها في تاء الافتعال، ثم أتبعوا ذلك باسم مصدره كالتَّجَاهِ والتَّكَلُّةِ والتَّؤَدَّةِ والتَّخْمَةِ"^(١). ولها باعتبار المصدرية إعرابان بتقديرين مختلفين:

أحدهما: أن تكون ﴿تُقَنَّةً﴾ مصدراً واقعاً موقعَ المفعول به، وذلك على أن ﴿تَتَّقُوا﴾ بمعنى تخافوا، وهو ظاهر قول الزمخشري، فإنه قال: "إِلَّا أَنْ تَخَافُوا مِنْ جِهَتِهِمْ أَمْرًا يَجِبُ اتَّقَاؤُهُ"^(٢).

والآخر: أن ﴿تُقَنَّةً﴾ واقعة موقع الاتقاء، والأصل: أن تتقوا اتقاءً، نحو: تقتدر اقتداراً، وتعرب مفعولاً مطلقاً. يقول الألوسي: "والمراد بالتقاء ما يتقى منه، وتكون بمعنى اتقاء وهو الشائع. فعلى الأول: يكون مفعولاً به لتقوا، وعلى الثاني: مفعولاً مطلقاً له"^(٣).

والوجه الثاني: أن تكون ﴿تُقَنَّةً﴾ جمع تاقٍ، نحو: رامَ ورُمَاةً، وغَازٍ وغُزَاةً، أو جمع تقي، وتعرب حالاً مؤكدةً؛ لأن معناه مفهوم من عاملها، كقوله: ﴿وَيَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣/١٩]، جاء في البحر: "يجوز أن

(١) روح المعاني: ١٢١/٣.

(٢) الكشف: ٣٨٠/١.

(٣) روح المعاني: ١٢١/٣.

يكون ﴿تُقَنَّةٌ﴾ مثل رماة حالاً من ﴿تَكْتَفُوا﴾، وهو جمع فاعل، وإن كان لم يستعمل منه فاعل، ويجوز أن يكون جمع تقي^(١).

وهكذا نرى أن النظم القرآني عبّر ببنية صرفية واحدة عن صيغتين مختلفتين: المصدرية والجمع، ولكل صيغة احتمالان، فجمع أربعة احتمالات ممكنة بلفظ واحد.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١/٤].

قوله تعالى: ﴿مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ يحتمل أن يكون مصدراً ميمياً، أي: إدخالاً، والمفعول محذوف، أي: وندخلكم الجنة إدخالاً مع كرامة. ويحتمل أن يكون اسم مكان فيكون مفعولاً. يقول أبو حيان: "وانتصاب المضموم الميم إمّا على المصدر، أي: إدخالاً، والمدخل فيه محذوف أي: ويدخلكم الجنة إدخالاً كريماً. وإمّا على أنه مكان الدخول"^(٢). فجمعت الكلمة المعنيين، المصدرية واسم المكان، بصيغة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَأَدْنَىٰ أَهْبَابِ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨/٧].

وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ يحتمل (الجمع) معنيين؛ أولهما: المصدر، ومفعوله محذوف بتقدير المال أو الناس، والمعنى: مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ الناس، أو جَمْعُكُمْ المال. والثاني: اسم المفعول، والمعنى: مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مجموعكم، أي: ما جمعتموه من المال والثروة.

يقول ابن عاشور: "ومعنى ﴿جَمْعُكُمْ﴾ يحتمل أن يكون جَمْعُ الناس،

(١) البحر المحيط: ٤٤٢/٢.

(٢) نفسه: ٢٤٤/٣.

أي: ما أغنت عنكم كثرتكم التي تعتزّون بها، ويحتمل أن يراد من (الجمع) المصدر بمعنى اسم المفعول، أي: ما جمعتموه من المال والثروة^(١). فكلمة «جَمَعُوكُمْ» أكسبت الآية الكريمة اتساعاً لدلالاتي المصدر واسم المفعول.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥/١٠].

صيغة الضياء في الآية الكريمة تحتمل أمرين:

الأول: أن تكون مصدراً كقيام وصيام، والضياء جُعِلَ نفس الكوكب مبالغة، كما يقال للكریم: إنه كرم وجود، أو على حذف مضاف، أي: ذات ضياء.

والثاني: أن تكون جمع ضوء كسياط وسوط، وبإؤه منقلبة من الواو لانكسار ما قبلها.

قال أبو علي الفارسي: "الضياء لا يخلو من أحد أمرين؛ إما أن يكون جمع ضوء، كسوط وسياط وحوض وحياض، أو مصدر ضاء يضيء ضياء، كقولك: قام قياماً، وصام صياماً، وعلى أي الوجهين حملته فالمضاف محذوف"^(٢). والآية متسعة للمعنيين بصيغة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بَجْرَيْنَهَا وَمُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١/١١].

قوله تعالى: ﴿بَجْرَيْنَهَا وَمُرْسَهَا﴾ في موضع الظرف المكاني أو الزماني. والتقدير: اركبوا فيها مُسَمِّينَ في موضع جريانها ورُسُوها، أو وقت جريانها ورُسُوها، والتقدير: اركبوا فيها مُتَبَرِّكِينَ باسم الله في هذين

(١) التحرير والتنوير: ١١٢/٨.

(٢) التفسير الكبير: ٢٩/١٧.

المكانين، أو الوقتين. ويجوز أيضاً أن يكون ﴿بَجَرِئَهَا وَمُرْسَهَا﴾ مصدرين، أي: استقرَّ بسم الله إجراؤها وإرساؤها.

يقول البيضاوي: "﴿يَسْمِ اللَّهُ بَجَرِئَهَا وَمُرْسَهَا﴾ متصل بـ ﴿أَرْكَبُوا﴾ حال من الواو، أي: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين باسم الله وقت إجرائها وإرسائها، أو مكانهما، على أن المجرى والمرسى للوقت أو المكان أو المصدر"^(١). ففي تقدير الآية اتساع لثلاثة احتمالات في وقت واحد، وبدل أن يقول باسم الله إجراؤها وإرساؤها، وباسم الله وقت إجرائها وإرسائها، وباسم الله مكان إجرائها وإرسائها، جمع الثلاثة بصيغة صرفية احتمالية (مفعول) تصلح للمصدر والزمان والمكان جميعاً.

قال تعالى: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِضِينَ﴾ [هود: ٤٣/١١].

﴿عَاصِمٌ﴾ اسم فاعل، والمعنى: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله فإنه يعصمه، فيكون الاستثناء منقطعاً. ويحتمل أن يكون: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا الراحم، والراحم هو الله، فيكون المعنى: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا الله.

ويحتمل أن يكون المراد بـ ﴿عَاصِمٌ﴾ اسم المفعول فيكون ﴿عَاصِمٌ﴾ بمعنى (معصوم)، فيكون المعنى: لا معصوم إلا من رحمه الله، أي لا معصوم إلا المرحوم"^(٢).

يقول أبو حيان: "والظاهر إبقاء عاصم على حقيقته، وأنه نفي كل عاصم من أمر الله في ذلك الوقت، وأنَّ ﴿مَنْ رَحِمَ﴾ يقع فيه ﴿مَنْ﴾ على المعصوم. والضمير الفاعل يعود على الله تعالى، وضمير الموصول

(١) أنوار التنزيل: ٢٣٤/٣.

(٢) الجملة العربية والمعنى: ٨٥.

محذوف، ويكون الاستثناء منقطعاً، أي: لكن من رحمه الله معصوم، وجوزوا أن يكون ﴿مَنْ﴾ الله تعالى أي لا عاصم إلا الراحم، وأن يكون ﴿عَاصِمٌ﴾ بمعنى ذي عصمة، كما قالوا: (لابن)، أي: ذو لبن، وذو عصمة، مطلق على عاصم وعلى معصوم، والمراد به هنا المعصوم. أو فاعل بمعنى مفعول، فيكون عاصم بمعنى معصوم، كما دافق بمعنى مدفوق. وقال الشاعر^(١):

بطيء الكلام رخم الكلام أمسى فؤادي به فاتنا
أي مفتوناً. و(من) للمعصوم، أي: لا ذا عصمة، أو لا معصوم إلا المرحوم، وعلى هذين التجويزين يكون استثناء متصلاً^(٢).

وفي الآية تحليل آخر يستند إلى منطوق اللفظ ومفهومه، وأن ذكر العاصم يستلزم معصوماً، يقول ابن القيم: "لما ذكر العاصم استدعى معصوماً مفهوماً من السياق، فكأنه قيل: لا معصوم اليوم من أمره إلا من رحمه، فإنه لما قال: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ بقي ذهن طالباً للمعصوم، فكأنه قيل: فمن الذي يُعصم؟ فأجيب بأنه لا يُعصم إلا من رحمه الله.

ودل هذا اللفظ باختصاره وجلالته وفصاحته على نفي كل عاصم سواه، وعلى نفي كل معصوم سوى من رحمه الله؛ فدل الاستثناء على أمرين؛ على المعصوم من هو، وعلى العاصم وهو ذو الرحمة. وهذا من أبلغ الكلام وأفصح وأوجزه. ولا يلتفت إلى ما قيل في الآية بعد ذلك^(٣).

(١) انظر البيت في معجم مقاييس اللغة: (فتن)، وفي التاج: (قطع) بلفظ:

رَخِيمُ الكلام قَطِيع القيام أَصْحَى فؤادي به فاتنا
(٢) البحر المحيط: ٢٢٧/٥.

(٣) بدائع الفوائد: ٥٧٤/٣ ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تح: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد. مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ١، ١٩٩٦م.

وخلاصة الأمر أن صيغة «عَاصِمَ» تتأرجح بين اسم الفاعل واسم المفعول في منطوق اللفظ ومفهومه، وكلاهما صحيح ومراد في الوقت ذاته، فبدل أن يقول: لا عاصم إلا الراحم ولا معصوم إلا المرحوم، جمعهما بصيغة واحدة تحتلها معاً، فقال: «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ».

قال تعالى: «فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ» [هود: ٦٥/١١].

قوله تعالى: «غَيْرُ مَكْذُوبٍ» فيه احتمالان:

أولهما: اسم المفعول، أي: غير مكذوب فيه، أو غير مكذوب كأن الوعد إذا أنجز فقد صدق وإلا كذب.

والثاني: أن يكون مصدراً، كالمجلود والمعقول، أي: وعد غير كذب. يقول الشوكاني: "«وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ»، أي: غير مكذوب فيه، فحذف الجار اتساعاً، أو من باب المجاز كأن الوعد إذا وفى به صدق ولم يكذب، ويجوز أن يكون مصدراً أي وعد غير كذب" (١).

والصيغة محتملة للوجهين معاً، المصدرية واسم المفعول.

قال تعالى: «وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ» [إبراهيم: ٢١/١٤].

التبع في قوله تعالى: «إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا» جمع تابع مثل خادم وخدم وحارس وحرس وراصد ورصد، وجائز أن يكون مصدراً سمي به مبالغة في الوصف. ويحتمل أن يكون على تقدير مضاف محذوف، أي: كنا ذوي تبع.

(١) فتح القدير: ٥٠٨/٢.

يقول البيضاوي: "﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم، وهو جمع تابع كغائب وغيب، أو مصدر نعت به للمبالغة، أو على إضمار مضاف"^(١). ويقول الشوكاني: "﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع لتابع كخدم وخادم. أو مصدر واقع موقع اسم الفاعل، أي: تابعين، أو على حذف مضاف، أي: ذوي تبع"^(٢).

فبدل أن يقول: إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَابِعِينَ، أو ذوي تبع، جمعهما بصيغة صرفية محتملة للمعنيين معاً، إضافة إلى مبالغة الوصف بالمصدر.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ١٧/٥٩].

قوله تعالى: ﴿مُبْصَرَةً﴾ فيه احتمالات:

الأول: أنه صيغة اسم الفاعل حال من الناقة، وفي اشتقاقه ثلاثة احتمالات:

فإما أن يكون من الإبصار، أي: ذات إبصار، يبصرها الناس. وإما أن يكون من البصيرة، أي: ذات بصيرة، يتبصر بها الناس، والصيغة للنسب. أو جاعلة الناس ذوي بصائر، على أنه اسم فاعل من أبصره، والهمزة للتعدي، أي: جعله ذا بصيرة وإدراك.

والثاني: يحتمل أن يكون إسناد الإبصار إليها مجازاً، وهو في الحقيقة حال من يشاهدها.

جاء في فتح القدير: "﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً﴾، أي: ذات إبصار يدركها الناس بأبصارهم كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ الْهَارِ مُبْصَرَةً﴾ [الإسراء: ١٧/٥٩]."

(١) أنوار التنزيل: ٣/٣٤٤.

(٢) فتح القدير: ٤/٤٩٥.

[١٢/١٧]، أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازاً. أو أنها جعلتهم ذوي إِبصار من أبصره جعله بصيراً^(١).

فقد جمعت الآية أربعة احتمالات ممكنة بكلمة واحدة مستثمرة بناءها الصرفي وما يحتمله من دلالات.

قال تعالى: ﴿فَلَنَأْيِسُّنَّكَ إِسْحَرٍ مِّثْلَهُ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۖ﴾ ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحًى﴾ [طه: ٥٨-٥٩].

قوله تعالى: ﴿مَوْعِدًا﴾ يحتمل ثلاثة احتمالات في آن معاً:

أولها: أن تكون مصدراً ميمياً، أي: فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَعِدًا لَا نُخْلِفُهُ. ويؤيد هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾؛ لأن الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف وعدمه.

والثاني: أن يكون الموعد اسم زمان، كقوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١/١١]، أي: فعين لنا وقتاً نجتمع فيه؛ ولذلك أجابهم بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾.

والثالث: أنه اسم مكان، أي: فحدّد لاجتماعنا مكاناً معلوماً نعرفه نحن وأنت فنأتيه. ويدعمه قوله ﴿مَكَانًا سُوًى﴾.

يقول ابن هشام: "وقد يحتمل الموضع أكثر من وجه، ويوجد ما يرجح كلاً منها، فينظر في أولاها كقوله تعالى: ﴿فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ فإن الموعد محتمل للمصدر، ويشهد له ﴿لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾، وللزمان ويشهد له ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾. وللمكان ويشهد له ﴿مَكَانًا سُوًى﴾"^(٢).

(١) نفسه: ٢٣٨/٣.

(٢) مغني اللبيب: ٧٧٦-٧٧٧.

والحق أن انتقاء هذه الصيغة في هذا الموضع من الإعجاز بمكان، إذ المعاني الثلاثة - والله أعلم - مرادة معاً في هذه الآية فبدل أن يأتي بثلاث كلمات مختلفة، جمعها بصيغة واحدة تحتمل المصدر والزمان والمكان في آن واحد.

قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِيفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦/٢٠].

قوله: ﴿وَعَدًّا حَسَنًا﴾ يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً، والمفعول محذوف تقديره: وعدكم بالكتاب والهداية، أو يترك المفعول الثاني ليعم. ويجوز أن يكون الوعد بمعنى الموعد فيكون هو المفعول الثاني.

جاء في روح المعاني: "ونصب ﴿وَعَدًّا﴾ يحتمل على أن يكون على أنه مفعول ثان وهو بمعنى الموعد، ويحتمل أن يكون على المصدرية والمفعول الثاني محذوف" (١). وكلا المعنيين محتمل، والآية الكريمة جمعتهما بلفظ واحد يحتملها معاً.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ﴾ [الحج: ٦٧/٢٢].

تحتمل صيغة ﴿مَنْسَكًا﴾ ثلاثة معان، فقد تكون بمعنى النسك، أي: العبادة. وقد تدل على زمان النسك، وكذلك مكانه.

يقول الرازي: "في المنسك أقوال؛ أحدها: قال ابن عباس: عيداً يذبحون فيه. وثانيها: قرباناً. ولفظ المنسك مختص بالذبائح عن مجاهد. وثالثها: مألفاً يألفونه إما مكاناً معيناً أو زماناً معيناً لأداء الطاعات.

ورابعها: المنسك هو الشريعة والمنهاج، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء واختيار القفال وهو الأقرب لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٥/٤٨]، ولأن المنسك مأخوذ من النسك وهو العبادة، وإذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه للتخصيص^(١).

ويقول الألوسي: "وقيل: هو مصدر بمعنى النسك، أي: العبادة، قال ابن عطية: يعني ذلك ﴿هُمْ نَاسِكُونَ﴾ وقيل: هو اسم زمان، وقيل: اسم مكان، وكان الظاهر (ناسكون فيه) إلا أنه اتسع في ذلك"^(٢).

والخلاصة أن الكلمة تحتل ثلاثة المعاني: النسك وزمانه ومكانه في بنية احتمالية جامعة إيجازاً واتساعاً.

قال تعالى: ﴿أَصْحَبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٢٤].

صيغتا (مستقر ومقيل) يحتمل كل منهما أن تكون مصدراً ميمياً أو اسم زمان أو اسم مكان، وفي اجتماعهما ترقى احتمالات المعنى في الآية الكريمة إلى تسعة.

يقول الألوسي: "﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ المستقر: المكان الذي يستقر فيه في أكثر الأوقات للتجالس والتحدث. ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ المقيل: المكان الذي يؤوى إليه للاسترواح إلى الأزواج والتمتع بمغازلتهم، سمي بذلك لأن التمتع به يكون وقت القيلولة غالباً...

وتفسير المستقر والمقيل بالمكانين حسبما سمعت هو المشهور، وهو أحد احتمالات تسعة: وذلك أنهم جوزوا أن يكون كلاهما اسم مكان أو اسم زمان أو مصدراً وأن يكون الأول اسم مكان والثاني اسم زمان

(١) التفسير الكبير: ٥٧/٢٣.

(٢) روح المعاني: ١٧/١٩٥.

أو مصدرًا، وأن يكون الأول اسم زمان والثاني اسم مكان أو مصدرًا، وأن يكون الأول مصدرًا والثاني اسم مكان أو اسم زمان. وما شئت تخيل في خيرية زمان أصحاب الجنة وأحسنيته، وكذا في خيرية استقرارهم وأحسنية استراحتهم يومئذ^(١).

وبهذه الاحتمالات نرى مدى الاتساع في دلالات الآية الكريمة، وما ذاك إلا لحسن استخدام الصيغة الصرفية بفنية عالية في هذا الموضع، ولو قال مثلاً: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ اسْتِقْرَاراً وَأَحْسَنُ قِيلُولاً، لما كان في الآية إلا هذا المعنى.

قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٢٧/٣٩].

وقوله: ﴿ءَاتِيكَ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً مضارعاً مسنداً للمتكلم، ويحتمل كذلك أن يكون اسم فاعل، وبهما قال المفسرون والنحاة.

يقول ابن عاشور: "وقوله: ﴿ءَاتِيكَ﴾ يجوز أن يكون فعلاً مضارعاً من أتى، وأن يكون اسم فاعل منه، والباء على الاحتمالين للتعدية"^(٢).

ويقول ابن هشام في حديثه عن الجمل الصغرى والكبرى: "وقد يحتمل الكلام الكبرى وغيرها. ولهذا النوع أمثلة؛ أحدها: نحو ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ﴾ إذ يحتمل ﴿ءَاتِيكَ﴾ أن يكون فعلاً مضارعاً ومفعولاً، وأن يكون اسم فاعل ومضافاً إليه، مثل ﴿وَإِنِّي أَنَا ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ﴾ [هود: ١١/٧٦]، ﴿وَكُلُّهُمْ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ ظَهِيرٌ مَُّرْتَبِئٌ﴾ [مريم: ٩٥/١٩]، ويؤيده أن أصل الخبر الأفراد"^(٣). فقد جمعت الآية معنيين ممكنين بصيغة صرفية واحدة.

(١) نفسه: ١٩/٨-٩.

(٢) التحرير والتنوير: ١٩/٢٦٤.

(٣) مغني اللبيب: ٤٩٨.

قال تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ [النمل: ٢٧/٤٩].

قوله: ﴿مَهْلِكَ﴾ صيغة مشترك بين ثلاثة معان: المصدرية، أي: ما شهدنا إهلاك أهله. والزمان والمكان، أي: ما حضرنا وقت إهلاك أهله، أو مكانه.

يقول ابن عاشور: "وقرأ الجمهور: (مُهْلِك) بضم الميم وفتح اللام وهو مصدر الإهلاك أو مكانه أو زمانه. وقرأه حفص بفتح الميم وكسر اللام ويحتمل المصدر والمكان والزمان"^(١).

والذي نرجحه اجتماع هذه الدلالات معاً في الآية؛ لأن حدوث الإهلاك لا بد له من زمان ومكان، والقصد - والله أعلم - نفي التهمة عنهم بقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ أي: ما حضرنا هلاكهم، وكنا على سفر وقت هلاكهم، ولم نكن في مكان هلاكهم فكيف ننتهم؟
فبكلمة واحدة عبّر عن ثلاثة المعاني مجتمعة، مستثمراً الصيغة الصرفية أمثل استثمار، ولو قال غيرها لما أفاد غير معنى واحد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ٢٩/١٧].

قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يعني لا يقدرّون أن يرزقوكم، ف﴿رِزْقًا﴾ مصدر، وتحتل الآية وجهاً آخر، وهو أن ما تعبدونه من دون الله لا يملكون مالا يرزقونكم به، فتكون ﴿رِزْقًا﴾ دالة على المفعول أي المرزوق به.

(١) التحرير والتنوير: ٢٧٥/١٩.

يقول البيضاوي: "﴿رَزَقًا﴾" يحتمل المصدر بمعنى لا يستطيعون أن يرزقوكم، وأن يراد المرزوق وتنكيره للتعميم^(١).

فبكلمة واحدة عبّرت الآية الكريمة عن معنيين محتملين وصحيحين في وقت واحد، إذ ما يُعَبَّد من دون الله لا يملك أن يرزق أحداً شيئاً، ولا يملك عند التحقيق مالاً أو متاعاً يرزق به غيره، يشهد لهذا المعنى قول النبي ﷺ: "يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَا لِي مَالِي. قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ"^(٢). فقد كسبت الآية الكريمة المعنيين جميعاً بلفظ واحد يصلح لهما معاً.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢/٣١].

وُصف القرآن الكريم بـ ﴿الْحَكِيمِ﴾ في هذه الآية، وفي ثلاث آيات أخرى، هي قوله تعالى: ﴿تِلْكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨/٣]، وقوله: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١٠/١]، وقوله: ﴿وَأَلْقُرْآنَ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢/٣٦].

و﴿الْحَكِيمِ﴾ في هذه الآيات جاءت وصفاً للذكر والكتاب والقرآن، والكلمة على صيغة (فعل)، وفي دلالتها احتمالات عدة:

أولها: فعيل بمعنى فاعل، أي: الكتاب الحاكم، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/٢١٣].

ثانيها: فعيل بمعنى مفعّل، أي: الكتاب المُحكّم، ودليله قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١١/١].

(١) أنوار التنزيل: ٣١١/٤.

(٢) صحيح مسلم: حديث رقم (٢٩٥٨)، ٢٢٧٣/٤، مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

والثالث: فعيل بمعنى مفعول، أي: الكتاب المحكوم فيه، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥/٥]، أي: بما في كتاب الله من الأحكام.

أما الرابع فالحكيم الناطق بالحكمة، أي: الكتاب ذو الحكمة، ودليله قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ١٧/٣٩]، وقوله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٤].

وثمة احتمالان آخران ذكرهما بعض المفسرين على تقدير الإسناد المجازي أو بتقدير حذف، فيكون الحكيم وصفاً لله تعالى، أي: الحكيم قائله أو منزله.

يقول أبو حيان: "ووصف الكتاب بالحكيم، إما لتضمنه للحكمة، قيل: أو (فعيل) بمعنى المحكم، وهذا يقل أن يكون (فعيل) بمعنى (مفعّل)، ومنه عقدت العسل فهو عقيد، أي معقد، ويجوز أن يكون (حكيم) بمعنى (حاكم). وقال الزمخشري: الحكيم: ذو الحكمة؛ أو وصف لصفة الله عز وجل على الإسناد المجازي، ويجوز أن يكون الأصل: الحكيم قائله، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فبانقلابه مرفوعاً بعد الجر استكن في الصفة المشبهة" (١).

ويقول القرطبي: "والحكيم: المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام. قاله أبو عبيدة وغيره.

وقيل: الحكيم بمعنى الحاكم، أي: إنه حاكم بالحلال والحرام وحاكم بين الناس بالحق، فعيل بمعنى فاعل، دليله قوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢/٢١٣].

وقيل: الحكيم بمعنى المحكوم فيه، أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر، وبالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه، فهو فعيل بمعنى المفعول. قاله الحسن وغيره.

وقال مقاتل: الحكيم بمعنى المحكم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف، فعيل بمعنى مفعول، كقول الأعشى يذكر قصيدته التي قالها:

وغريبة تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذا قالها^(١)

فتأمل كيف اتسعت هذه المفردة لمعان كثيرة بصيغتها (فعليل)، وجعلت المفسرين يختلفون في تأويلها، ويذهبون فيها مذاهب شتى، ولعل الأولى أن يُقال: إن تلك المعاني كلها مرادة ومقصودة معاً في آن واحد، فالقرآن الكريم حاكم ومُحكّم وناطق بالحكمة ومحكوم فيه بالعدل وحكيم قائله، عبّر النظم القرآني عن كل تلك المعاني بقوله ﴿الْحَكِيمِ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَّهَلَّ يَتْرَبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣/٣٣].

قول المنافقين في الآية الكريمة ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ يدل من حيث الصيغة على المصدرية، بمعنى لا إقامة لكم فارجعوا. ويحتمل أن يدل على اسم المكان، أي: لا مكان لكم تقيمون فيه، فارجعوا.

يقول أبو حيان: "﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ في حومة القتال والممانعة ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى بيوتكم ومنازلكم، أمروهم بالهرب عن رسول الله ﷺ... وقرأ السلمي والأعرج واليماني

وحفص: بضم الميم، فاحتمل أن يكون مكاناً، أي: لا مكان إقامة. واحتمل أن يكون مصدراً، أي: لا إقامة^(١).

ففي (المقام) دلالة على المصدر الميمي ودلالة اسم المكان، ولو كان التعبير بالمصدر (الإقامة) لما أدت الآية غير معنى واحد، ولكن الآية عبرت عما يجول في أذهان المنافقين وعلى ألسنتهم من نفي الإقامة ومكانها معاً بلفظ واحد، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٤٠/٣].

و﴿التَّوْبِ﴾ في الآية يحتمل أن يكون مصدراً كالأوب بمعنى الرجوع، ويحتمل أن يكون اسم جمع لتوبة كتمر وتمرّة.

يقول القرطبي: "و﴿التَّوْبِ﴾ يجوز أن يكون مصدر تاب يتوب توباً. ويحتمل أن يكون جمع توبة، نحو: دومة ودوم، وعزمة وعزم، ومنه قوله:

فِيخْبُو سَاعَةً وَيَهْبُ سَاعاً

ويجوز أن يكون التوب بمعنى التوبة. قال أبو العباس: والذي يسبق إلى قلبي أن يكون مصدراً، أي: يقبل هذا الفعل، كما تقول: قال قولاً، وإذا كان جمعاً فمعناه يقبل التوبات^(٢).

وقد دلّت الآية بهذه الصيغة ﴿التَّوْبِ﴾ على معاني الجمع والإفراد والمصدرية بلفظ واحد، ولو عبّر بـ قابل التوبة أو التوبات لما أفاد إلا معنى واحداً، وحقيقة الأمر أن الآية عبّرت عن تلك المعاني مجتمعة، وهو المراد، والله أعلم، فالله تعالى يقبل هذا الفعل من عباده، ويقبل التوبة سواء أكانت مرة واحدة أو مرات كثيرة.

(١) البحر المحيط: ٢١٢/٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢٩١/١٥.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩/٤٠].

وقوله: ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنها مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة، أي: يعلم خيانة الأعين، أي استراق النظر إلى ما لا يحلُّ، كما يفعل أهل الريب.

والثاني: أنها اسم فاعل على بابها، وهو من إضافة الصفة للموصوف، والأصل: الأعينُ الخائنة.

يقول الثعالبي: "والخائنة: مصدرٌ كالخيانة، ويحتمل أن تكون ﴿خَائِنَةَ﴾ اسمَ فاعِل، أي: يعلم الأعين إذا خانت في نظرِها، قال أبو حيان: والظاهرُ أن ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: الأعينُ الخائنة، كقوله^(١): [البسيط]

وإن سَقَيْتِ كِرَامَ النَّاسِ فاسقينا

أي: الناسَ الكرامَ، وجوِّزوا أن يكونَ ﴿خَائِنَةَ﴾ مصدرًا، كالعافية، أي: يعلم خيانة الأعين "٢".

والآية تفيد المعنيين؛ فالله يعلم خيانة الأعين، ويعلم الأعين الخائنة، ولو عبَّرَ بأحدهما لما أفادت الآية غير معنى واحد.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦/٤٣].

كلمة ﴿براءً﴾ في الآية فيها احتمالان:

(١) البيت منسوب لبشامة بن حزن النهشلي في خزانة الأدب: ٣٠٢/٨.

(٢) الجواهر الحسان: ٧٠/٤.

أولهما : أنها مصدر على المبالغة فيكون من الإخبار بالمصدر عن الذات كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦/١١]، جاء في فتح القدير : " البراء مصدر نعت به للمبالغة، وهو يستعمل للواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث. قال الجوهري: وتبرأت من كذا، وأنا منه براء وخلاء، لا يثنى ولا يجمع؛ لأنه مصدر في الأصل" (١).

والثاني : أن تكون صفة مشبهة على وزن فعال كجواد وصناع، قال الزجاج : " البراء بمعنى البريء" (٢). فالكلمة جمعت احتمالين ممكنين بلفظ واحد.

قال تعالى : ﴿ فَسَتَبْصُرُ وَيُصْرُونَ ﴾ ﴿ يَأَيُّكُمْ أَلْفُتُونُ ﴾ [القلم: ٦٨/٥-٦].

كلمة ﴿ أَلْفُتُونُ ﴾ تحتمل وجهين :

الأول : أن الصيغة على بابها من اسم المفعول والباء زائدة للتأكيد، أي : أيكم المفتون بالجنون، ومثله قول الشاعر (٣) :

نحن بنو جعدة أصحاب العلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج
والثاني : ﴿ أَلْفُتُونُ ﴾ مصدر جاء على مفعول كالمعقول والميسور، والباء ليست زائدة، والتقدير : بأيكم الفتون أو الفتنة، ومنه قول الشاعر الراعي (٤) :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفؤاده معقولا
أي : عقلاً.

(١) فتح القدير : ٥٥٣/٤.

(٢) زاد المسير : ٣٠٩/٧.

(٣) ديوان النابغة الجعدي : ٤٨، جمع وتحقيق : د. واضح الصمد. دار صادر، بيروت. ط١، ١٩٩٨م.

(٤) ديوان الراعي النميري : ٢١٠، شرح د. واضح الصمد. دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

جاء في لسان العرب: "والمَفْتُونُ: الفِتْنَةُ صيغ المصدر على لفظ المفعول كالمَعْقُول والمَجْلُود. وقوله تعالى: ﴿فَسَتْبَرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ ^(١) بِأَيِّكُمْ أَلْمَفْتُونُ [القلم: ٦٨/٥-٦]. قال أبو إسحاق: معنى المَفْتُونِ الذي فُتِنَ بالجنون. قال أبو عبيدة: معنى الباء الطرح، كأنه قال: أَيُّكُمْ المَفْتُونُ؟

قال أبو إسحاق: ولا يجوز أن تكون الباء لَعَوًّا ولا ذلك جائز في العربية. وفيه قولان للنحويين:

أحدهما: أن المَفْتُونَ ههنا بمعنى الفُتُونِ مصدر على المفعول، كما قالوا: ما له مَعْقُولٌ ولا مَعْقُودٌ رَأْيِي، وليس لفلان مَجْلُودٌ، أي: ليس له جَلْدٌ. ومثله المَيْسُورُ والمَعْسُورُ، كأنه قال: بِأَيِّكُمْ الفُتُونُ، وهو الجُنُون.

والقول الثاني: فَسَتْبَرُ وَيُبْصِرُونَ فِي أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ الْمَجْنُونِ، أي: في فرقة الإسلام أو في فرقة الكفر. أَقَامَ (الباء) مقام (في) ^(١).

والخلاصة أن في الكلمة معنيين محتملين، ولكل منهما ما يؤيده في لغة العرب عند اللغويين والمفسرين، جمعتهما الكلمة بصيغة صرفية واحدة، لو استبدل بها غيرها لما أدى هذين المعنيين.

قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢٩/٢١].

و﴿رَاضِيَةٍ﴾ على ثلاثة أوجه؛ أحدها: هي بمعنى مرضية، مثل: دافق بمعنى مدفوق. والثاني: على النسب، أي: ذات رضا، مثل: لابن وتامر. والثالث: هي على بابها مجازاً، وكأن العيشة رضيت بمحلها وحصلوها في مستحقها، أو أنها لا حال أكمل من حالها، أو لِمَلَابَسَةِ العيشة حالةً صاحبها وهو الراضي لا هي.

(١) لسان العرب: (فتن).

يقول الألوسي: ﴿فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ قال أبو عبيدة والفراء: أي مرضية.

وقال غير واحد: أي ذات رضى، على أنه من باب النسبة بالصيغة كلابن وتامر، ومعنى ذات رضى ملتبسة بالرضا، فيكون بمعنى مرضية أيضاً...

والمشهور حمل ما ذكر على أنه مجاز في الإسناد والأصل في عيشة راضٍ صاحبها فأسند الرضا إليها لجعلها لخصوصها دائماً عن الشوائب، كأنها نفسها راضية" (١).

ويقول ابن عاشور: "ووصفُ «عَيْشَةٍ» بـ «رَاضِيَةٍ» مجاز عقلي لِملاسة العيشة حالة صاحبها، وهو العائش، ملاسة الصفة لموصوفها. والراضي هو صاحب العيشة لا العيشة؛ لأن «رَاضِيَةٍ» اسم فاعل رَضِيَتْ إذا حصل لها الرضى، وهو الفرح والغبطة. والعيشة ليست راضية ولكنها لحسنها رَضِيَ صاحبها، فوصفها بـ «رَاضِيَةٍ» من إسناد الوصف إلى غير ما هو له، وهو من المبالغة؛ لأنه يدل على شدة الرضى بسببها حتى سرى إليها" (٢).

فقد اتسعت دلالة الكلمة لتشمل ثلاثة معانٍ محتملة، ولها نظائرها في لغة العرب، وما ذاك إلا لاستخدام صيغة اسم الفاعل في سياق هذه الآية.

قال تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ ۖ إِنَّهَا إِلَّا أَحَدَى الْكُفْرِ ۖ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٦-٣٤/٧٤].

كلمة «نَذِيرًا» على وزن (فعليل) وهي صيغة مشتركة بين معنيين في هذه الآية هما: المصدر، مثل نكير وإنكار، أي: إنذاراً للبشر. واسم الفاعل، أي: منذرًا للبشر.

(١) روح المعاني: ٤٨/٢٩.

(٢) التحرير والتنوير: ١٢٣/٢٩.

يقول أبو حيان: "وقرأ الجمهور: ﴿نَذِيرًا﴾ واحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى الإنذار، كالنكير بمعنى الإنكار، فيكون تمييزاً، أي: لإحدى الكبر إنذاراً، كما تقول: هي إحدى النساء عفافاً. كما ضمن إحدى معنى أعظم، جاء عنه التمييز. وقال الفراء: هو مصدر نصب بإضمار فعل، أي أنذر إنذاراً. واحتمل أن يكون اسم فاعل بمعنى منذر" (١).

وكلا المعنيين صحيح ومراد من الصيغة (فعل)، ولو أراد تخصيص اسم الفاعل أو المصدر لاستخدم له صيغة غير احتمالية، ولكنه الاتساع في نظم أي القرآن.

قال تعالى: ﴿لَا أَقِيمُ بَهْدًا أَبَلَدًا ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١/٩٠-٢].

أثر النظم القرآني التعبير في هذه الآية بـ ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ على ما سواه؛ لما تنطوي عليه هذه الكلمة بلفظها وصيغتها من احتمالات دلالية توسع نطاق المعنى توسيعاً فريداً يضيفي معاني لا نجدها في غير هذا التعبير؛ فقولهُ ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ يحتمل أربعة معانٍ مختلفة، وكلها مرادة، ولها أدلتها لدى المفسرين:

أولها: أنها تأتي بمعنى الحال والمقيم. والمقصود تعظيم المقسم به، وهو أنه لما حلّ الرسول ﷺ بمكة جمعت شرفين: شرفها الذي شرفها الله به وشرف الرسول ﷺ، فازدادت تعظيماً على تعظيم وشرفاً على شرف واستحقت بذلك القسم.

يقول الألوسي: "وقيل: (الحلُّ) صفة أو مصدر بمعنى الحال. يقال: حلَّ أي نزل يحلُّ حلاً وحلولاً. ويقال أيضاً: هو حلٌّ بموضع كذا كما يقال حالٌّ به" (٢).

(١) البحر المحيط: ٣٧٠/٨.

(٢) روح المعاني: ١٣٤/٣٠.

ويقول أبو حيان: " «وَأَنْتَ حِلٌّ» جملة حالية تفيد تعظيم المقسم به، أي: فأنت مقيم به، وهذا هو الظاهر...، أقسم بها لما جمعت من الشرفين، شرفها بإضافتها إلى الله تعالى، وشرفها بحضور رسول الله ﷺ وإقامته فيها، فصارت أهلاً لأن يقسم بها" ^(١).

والمعنى الثاني من معاني (الحلّ): أنها بمعنى التبرئة مما يقتضيه المشركون في مكة، أي: وأنت بهذا البلد متخرج بريء مما يفعلون، كما تقول: أنا في حلٍّ من هذا.

يقول الألوسي: "المعنى وأنت حلٌّ بهذا البلد مما يقتضيه أهله من المآثم، متخرج بريء منها" ^(٢).

والمعنى الثالث: أنها تأتي بمعنى اسم المفعول، أي: مُسْتَحَلٌّ، فعلى هذا يكون المعنى: وأنت مُسْتَحَلٌّ قتلَك، لا تراعى حرمتك في هذا البلد الحرام الذي يأمن فيه الناس على دمائهم وأموالهم، والذي يأمن فيه الطير والوحش.

يقول الألوسي: "(الحلّ) بمعنى المستحلّ بزنة المفعول الذي لا يحترم، فكأنه قيل: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمة يُسْتَحَلُّ بهذا البلد الحرام، ولا يُحترم كما يُسْتَحَلُّ الصيد في غير الحرم" ^(٣).

وجاء في (الكشاف): "عن شرحبيل: يحرمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة، ويستحلون إخراجك وقتلك. وفيه تثبيت من رسول الله ﷺ، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عداوته" ^(٤).

(١) البحر المحيط: ٤٦٩/٨-٤٧٠.

(٢) روح المعاني: ١٣٤/٣٠.

(٣) نفسه: ١٣٣/٣٠.

(٤) الكشاف: ٧٥٧/٤.

والمعنى الرابع من معاني (الحِلّ): أنها تأتي بمعنى الحلال ضد الحرام، أي: وأنت حلال بهذا البلد يحلُّ لك فيه قتل من شئت، وكان هذا يوم فتح مكة.

يقول الألوسي: "وجوّز أن يكون (الحِلُّ) بمعنى الحلال ضد الحرام، قال ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن جرير وغيره: وأنت يا محمد يحلُّ لك أن تقاتل به، وأما غيرك فلا" (١).

ويقول الزمخشري: "سَلَّى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالقسم ببلده، على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد، واعترض بأن وعده فتح مكة تميماً للتسلية والتنفيس عنه فقال ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، يعني: وأنت حلّ به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر. وذلك أن الله فتح عليه مكة وأحلّها له، وما فتحت على أحد قبله ولا أحلت له، فأحلّ ما شاء وحرّم ما شاء، قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ومقيس بن صبابه وغيرهما، وحرّم دار أبي سفيان، ثم قال: إنّ الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحلّ لأحد قبلي ولن تحلّ لأحد بعدي، ولم تحلّ لي إلا ساعة من نهار... فإن قلت: أين نظير قوله ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ في معنى الاستقبال؟ قلت: قوله عزّ وجل: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَمَاتٌ﴾ [الزمر: ٣٩/٣٠]، ومثله واسع في كلام العباد، تقول لمن تعدّه الإكرام والحباء: أنت مكرم محبوب، وهو في كلام الله أوسع؛ لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة. وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وأن تفسيره بالحال محال أن السورة بالاتفاق مكية، وأين الهجرة عن وقت نزولها، فما بال الفتح؟" (٢).

(١) روح المعاني: ١٣٣/٣٠.

(٢) الكشف: ٧٥٨/٤.

الأول: أن تكون (فعليل) للمبالغة بمعنى (فاعل)، أي: الآمن. يقول ابن الجوزي: "قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣/٩٥] يعني: مكة، يأمن فيه الخائف في الجاهلية والإسلام. قال الفراء: ومعنى ﴿الْأَمِينِ﴾: الآمن. والعرب تقول للأمين (آمن). قال الشاعر^(١):

أَلَمْ تَعْلَمِي يَا أَسْمَ وَيَحْكُ أَنْنِي حَلَفْتُ يَمِينًا لَا أَخُونُ أُمِينِي
يريد آمني "^(٢).

والثاني قريب من الأول: وهو أن تكون (فعليل) بمعنى (مُفْعِل)، يقول ابن عاشور: "سمي الأمين لأن من دخله كان آمناً؛ فالأمين (فعليل) بمعنى (مُفْعِل)، مثل (الداعي السميع) في بيت عمرو بن معد يكرب "^(٣)، يقصد قوله^(٤):

أَمِنْ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ يَؤْرِقُنِي وَأَصْحَابِي هَجُوعٍ
والثالث: أن تكون ﴿الْأَمِينِ﴾ فعيلًا بمعنى مفعول، مثل جريح بمعنى مجروح، وأسير بمعنى مأسور، أي: المأمون، ونسبة الأمن إليه من قبيل تسمية المحلّ باسم الحالّ فيه مجازاً، والمعنى: المأمون أهله والداخل فيه، قال تعالى: ﴿وَأَمْنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤/١٠٦]، أو لأنه مأمون الغوائل.

جاء في روح المعاني: "الأمين فعيل... بمعنى مفعول أي: المأمون من (أمنه) أي: لم يخفّه، ونسبته إلى البلد مجازية، والمأمون حقيقة

(١) البيت المذكور في تهذيب اللغة ولسان العرب: (آمن).

(٢) زاد المسير: ١٧٠/٩ - ١٧١.

(٣) التحرير والتنوير: ٣٧٢/٣٠.

(٤) ديوان عمرو بن معد يكرب: ٦.

الناس، أي: لا تخاف غوائلهم فيه، أو الكلام على الحذف والإيصال
أي: المأمون فيه من الغوائل" (١).

والاحتمال الثاني في دلالة ﴿الْأَمِينِ﴾ أن يكون من الأمانة، يقول
الألوسي: "الأمين (فعل) بمعنى (فاعل)، أي: الآمن، من أَمُنَ الرجل
بضم الميم أمانةً فهو أمين... وسمع على معنى النسب، كما في قوله
تعالى: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص: ٢٨/٥٧]، بمعنى ذي أمن. وأمانته أن
يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه ففيه تشبيه بالرجل
الأمين" (٢).

ومن لطائف تعليل اختيار الوصف بـ ﴿الْأَمِينِ﴾ في هذه الآية قول
د. فاضل السامرائي: "وُصف بالأمين لأنه مكان أداء الأمانة، وهي
الرسالة. والأمانة ينبغي أن تؤدي في مكان أمين. فالرسالة أمانة نزل بها
الروح الأمين، وهو جبريل، وأداها إلى الصادق الأمين، وهو محمد، في
البلد الأمين، وهو مكة. فانظر كيف اختير الوصف هاهنا أحسن اختيار
وأنسبه.

فالأمانة حملها رسول موصوف بالأمانة فأداها إلى شخص موصوف
بالأمانة في بلد موصوف بالأمانة" (٣).

فباختيار لفظ ﴿الْأَمِينِ﴾ جمعت الآية الكريمة معنيي الأمن والأمانة،
وجمعت معنيي اسم الفاعل واسم المفعول، وجمعت الحقيقة والمجاز،
فهو أمين وآمن ومأمون، وهذه المعاني كلها مُراداة مطلوبة، وهي صفة
اختيرت هنا اختياراً مقصوداً لا يسدُّ مسدّها وصف آخر.

(١) روح المعاني: ١٧٣/٣٠.

(٢) نفسه: ١٧٣/٣٠.

(٣) التعبير القرآني: ٣٤٠، السامرائي، د. فاضل صالح. دار عمار، عمان، ط ٢،

ثانياً - دلالة الوزن الصرفي على صيغة صرفية ومعنى معجمي وكلاهما من جذر واحد:

من الوسائل التي اعتمدها الخطاب القرآني في توسيع دلالاته استثمار المفردة القرآنية من جهتين، جهة الميزان الصرفي، وجهة المعنى المعجمي، وذلك بأن ترد الكلمة دالة على معنيين؛ أحدهما يُردُّ لعوامل صرفية، والآخر لدلالة لفظية، وكلاهما مشتق من جذر لغوي واحد، وكلاهما يمكن أن يكون مرادفاً، ولا شك أن هذا مما يكثر معاني الخطاب القرآني ويقلل ألفاظه. وفيما يلي نستطلع نماذج منه:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: ٢٧/٢].

الميثاق في الآية الكريمة كلمة تحتمل معنيين:

أحدهما يعتمد على الدلالة المعجمية، وهو ما وثقوا به عهد الله من قبوله وإلزامه أنفسهم، أو ما وثق الله به عهده من آياته وكتبه وإنذار رسله.

والثاني يعتمد على الصيغة الصرفية للكلمة، أي: الميثاق بمعنى المصدر (التوثيق)، كما أن الميعاد بمعنى الوعد، والميلاد بمعنى الولادة. والمعنى: من بعد توثيق العهد، أو توثيق الله.

يقول البيضاوي: "﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الضمير للعهد. والميثاق اسم لما يقع به الوثاقة، وهي الاستحكام. والمراد به ما وثق الله به عهده من الآيات والكتب، أو ما وثقوه به من الالتزام والقبول. ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر" (١).

ويقول أبو حيان: "أي من توثيقه عليهم، أو من بعد ما وثق به عهده على اختلاف التأويلين في الميثاق. قال أبو البقاء: إن أعدت الهاء على

(١) أنوار التنزيل: ٢٦٦/١.

اسم الله كان المصدر مضافاً إلى الفاعل، وإن أعدتها إلى العهد كان مضافاً إلى المفعول، وهذا يدل على أن الميثاق عنده مصدر^(١).

والخلاصة أن لفظ (الميثاق) يدل على معنيين، التوثيق نفسه ووسائله من آيات الله وكتبه وإنذار رسله، وكلاهما مراد في سياق الآية، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠/٣].

قوله تعالى: ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ يحتمل معنيين:

أولهما: دلالة معجمية بأن يكون الوقود هو الحطب نفسه، والمعنى: وأولئك هم حطب النار. كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨/٢١].

والآخر: مردود لصيغة (الفعول) بوصفه مصدراً كالقبُول والوضوء والطَّهْوَر، والمعنى إما على المبالغة، بأن جُعِلُوا نفس التوقد مبالغة في وضعهم بالعذاب، أي: أصحاب توقدها. وإما على حذف مضاف، أي: يوقدها إحراق الناس، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

جاء في فتح القدير: "(الوقود) في الآية اسم للحطب، أي: هم حطب جهنم الذي تسعَّر به. ولكنها قد تكون مصدراً على وزن (فعلول)، وكذلك الوقود بفتح الواو في قراءة الجمهور يحتمل أن يكون اسماً للحطب، كما تقدم، فلا يحتاج إلى تقدير، ويحتمل أن يكون مصدراً؛ لأنه من المصادر التي تأتي على وزن (الفعول)، فتحتاج إلى تقدير، أي: هم أهل وقود النار"^(٢).

(١) البحر المحيط: ٢٧٣/١.

(٢) فتح القدير: ٣٢٠-٣٢١/١.

فالآية جمعت بلفظها ووزنها معنيين؛ المصدر (الإيقاد) ومادته (الحطب)، وكلاهما مراد، ولو عبّر بأحد هذين اللفظين مثلاً لما أفاد غير معنى واحد.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ الْأَعْمِ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤/٣].

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يحتمل ثلاث دلالات: واحدة مستفادة من الصيغة، واثنان من الدلالة المعجمية للفظ نفسه:

أما الأولى فهي دلالة صيغة (أفعل) على التعدية، من (هَمَّ) بالشيء يهْمُ هَمًّا، نواه وأرادَه وعزَمَ عليه، و﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ جعلتهم يهْمُونَ بشيء، يقول ابن عاشور: "قيل: معنى ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾ أدخلت عليهم الهَمَّ بالكفر والارتداد، وكان رأسُ هذه الطائفة معتب بن قشير"^(١).

وأما الدالتان المستفادتان من المعنى المعجمي فأولاهما: أن يكون ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾ من الهم والحزن، أي: حَدَّثَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ بما يدخل عليهم الهم، فجعلتهم ذوي همٍّ وأوقعتهم فيه، فجفاهم النوم.

والثانية أن يكون بمعنى شدة الاعتناء والذهول عما سواه، من أهماه بمعنى جعله مهماً له ومقصوداً. والمعنى: ما يهمهم إلا أنفسهم وطلب خلاصها، لا النبي ﷺ ولا غيره، فذهب النوم عنهم.

يقول الرازي: "هؤلاء هم المنافقون عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وأصحابهما، كان همُّهم خلاص أنفسهم. يقال: همني الشيء، أي: كان من همي وقصدي، قال أبو مسلم: من عادة العرب أن يقولوا لمن خاف: قد أهماه نفسه، فهؤلاء المنافقون لشدة خوفهم من القتل طار النوم عنهم.

وقيل: المؤمنون كان همهم النبي ﷺ وإخوانهم من المؤمنين، والمنافقون كان همهم أنفسهم. وتحقيق القول فيه: أن الإنسان إذا اشتد اشتغاله بالشيء واستغراقه فيه صار غافلاً عما سواه، فلما كان أحب الأشياء إلى الإنسان نفسه، فعند الخوف على النفس يصير ذاهلاً عن كل ما سواها^(١).

فثمة ثلاثة معان مستفادة من الصيغة الصرفية والدلالة المعجمية، عبّرت عنها الآية الكريمة بكلمة واحدة. وثلاثة المعاني لا يبعد أن تكون مرادة في الوقت ذاته، إذ المنافقون حدّثتهم أنفسهم بالارتداد فهمّوا به، وأوقعتهم أنفسهم بالهمّ والحزن، وكان لا يهتمهم إلا خلاص أنفسهم دون ما سواها، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤/٧].

في قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ كلمتان كل منهما تحتمل معنيين برّدّهما إلى البنية الصرفية والدلالة المعجمية:

فـ ﴿الْخَلْقُ﴾ تدلُّ على المصدر من خلق يخلق خلقاً، أي: فله الإيجاد والاختراع، وهذه الصفة خاصة بالله سبحانه. وتحتمل أن تكون بمعنى المفعول، أي: المخلوقات، وهي كلها ملك لله تعالى.

وـ ﴿وَالْأَمْرُ﴾ كذلك يحتمل أن يكون مَصْدَرًا من أمر يأمر أمراً، ضد النهي. ويحتمل أن يكون بمعنى الشأن، واحد الأمور. و(أل) التعريف لاستغراق الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤/٣].

(١) التفسير الكبير: ٣٨/٩.

يقول ابن عطية: "أخذ المفسرون ﴿الْخَلْقُ﴾ بمعنى المخلوقات. أي هي له كلها وملكه واختراعه، وأخذوا ﴿الْأَمْرُ﴾ مصدراً من أمر يأمر... ويحتمل أن تؤخذ لفظة ﴿الْخَلْقُ﴾ على المصدر من خلق يخلق خلقاً، أي: له هذه الصفة؛ إذ هو الموجدُ للأشياء بعد العدم، ويؤخذ ﴿الْأَمْرُ﴾ على أنه واحد من الأمور، إلا أنه يدل على الجنس، فيكون بمنزلة قوله: ﴿وَالَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣/١١]، وبمنزلة قوله ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠/٢]... وكيف ما تأولت الآية فالجميع لله" (١).

والجمع بين الخلق والأمر وسَّع دلالة الآية أيما اتساع، فبدل أن يأتي بأربع عبارات مختلفة الألفاظ لتعبّر عن أربعة معان، هي: له الإيجاد والأوامر، وله الإيجاد والأمور، وله المخلوقات والأوامر، وله المخلوقات والأمور، أتى بمفردتين انتظمتا تلك المعاني باستثمار الصيغة الصرفية والدلالة المعجمية فكسبها جميعاً من أقرب سبيل وبأوجز عبارة.

قال تعالى: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد: ٣٣/١٣].

في استخدام المصدر الصريح ﴿مَكْرُهُمْ﴾ فائدة بديعة؛ إذ تضيف إلى معنى المكر معنى احتمالياً آخر، فقد يكون المزيّن لهم هو المكر ذاته، وقد يكون المزيّن ما في المكر من دهاء وإحكام حيلة، ولو قال (زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) أن يمكروا) لكان المعنى أنه زين لهم أن يفعلوا مكرًا، لا أن مكرهم له صفة معينة هي التي تزيّنه لهم (٢)، فالتعبير بالمصدر المؤوّل (أن والفعل) دلالة متعيّنة على الحدث مجرداً عن الوصف، والتعبير بالمصدر الصريح يدل على الحدث، ويحتمل الدلالة على صفة من صفاته.

(١) المحرر الوجيز: ٤٠٩/٢.

(٢) معاني النحو: ١٢٨/٣.

يقول ابن القيم: "دخول (أن) على الفعل... يدل على مجرد معنى الحدث دون احتمال معنى زائد عليه، ففيها تحصين من الإشكال وتخليص له من شوائب الإجمال، بيانه أنك إذا قلت: (كرهت خروجك) و(أعجبني قدومك) احتمل الكلام معاني: منها أن يكون نفس القدوم هو المعجب لك دون صفة من صفاته، وهيأته، وإن كان لا يوصف في الحقيقة بصفات ولكنها عبارة عن الكيفيات، واحتمل أيضاً أنك تريد أنه أعجبك سرعته أو بطؤه أو حالة من حالاته، فإذا قلت: (أعجبني أن قدمت) كان [دخول] (أن) على الفعل بمنزلة الطبائع والصواب من عوارض الإجماليات المتصورة في الأذهان"^(١).

ففي قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ معنيان: أولهما قطعي وهو الدلالة على المكر نفسه، والثاني احتمالي قد يُراد به صفة من صفات المكر كالدهاء مثلاً، فجمعت الآية بإيثار المصدر الصريح معنيين بكلمة واحدة، ولو عبّرت بالمصدر المؤول لأفادت معنى واحداً بكلمتين اثنتين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِتْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠/١٦].

قوله تعالى: ﴿أُمَّةً﴾ يحتمل معنيين:

أولهما: أن (الأمة) تطلق على الرجل الجامع لخصالٍ محمودة، ولكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا مفرقة في أشخاص كثيرة، يؤيد ذلك قول أبي نواس^(٢):

وَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

(١) بدائع الفوائد: ٩٩/١-١٠٠.

(٢) ديوان أبي نواس: ٢١٨.

والثاني: أن (الأمة) (فُعَلَة) تدلُّ على المبالغة، (فُعَلَة) بمعنى المفعول، كالذُّخلة والنُّخبة، فالأمة: هو الذي يؤتم به؛ فإن الناس كانوا يؤمنونه للاستفادة منه والافتداء بسيرته.

جاء في فتح القدير: "يقال للرجل العالم (أمة). والأمة: الرجل الجامع للخير. قال الواحدي: قال أكثر أهل التفسير: أي معلماً للخير. وعلى هذا فمعنى كون إبراهيم كان أمة أنه كان معلماً للخير، أو جامعاً لخصال الخير، أو عالماً بما علمه الله من الشرائع.

وقيل: (أمة) بمعنى (مأموم)، أي: يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤/٢] ^(١).

ففي الكلمة معنيان محتملان أحدهما معجمي، والآخر عائد لدلالة الصيغة الصرفية، وكلاهما مراد، فسيدنا إبراهيم عليه السلام كان جامعاً لخصال الخير، وكان الناس يؤمنونه للاقتداء بسيرته، والآية جمعت المعنيين بكلمة واحدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٨/١٠٢].

قوله ﴿نُزُلًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه - في المستوى الصرفي - اسم مكان يُراد به موضع النُّزول. والثاني: أنه - في المستوى المعجمي - اسم لما يعدُّ من القرى للضيوف النازلين، وإطلاق اسم (النُّزُل) على العذاب استعارة على سبيل التهكُّم بهم، كقوله تعالى: ﴿فَبَسِّطْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١/٣].

جاء في تفسير الثعالبي: "و(النُّزُل) موضع النزول. و(النُّزُل) أيضاً ما يقدَّم للضيف أو القادم من الطعام عند نزوله. ويحتمل أن يريد بالآية هذا

المعنى، أن المعدَّ لهؤلاء بدل (النُّزْل) جهنم، والآية تحتل الوجهين^(١).
والقول ما قاله الشعالي من أن الآية تحتل الوجهين: الدلالة المعجمية لجهنم بمعنى العذاب، والدلالة الصرفية للكلمة بوصفها اسم مكان، والمعنيان مستفادان بلفظ واحد.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُّوْا عَلَىٰ تَحْرِيقِ نُجِيِّكُمْ مِّنْ عَذَابٍ ءَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُجَاهِدُوْنَ فِي سَبِيْلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

قوله تعالى: و ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ﴾ هنا يحتمل معنيين:
الأول منهما معجمي، وهو دلالة الخير على ضد الشرّ، وتكون الخيرية في المشار إليه مطلقة، أي: الجهاد والإيمان جمع في ذاته خيري الدنيا والآخرة.

والثاني مستفاد من الدلالة الصرفية للكلمة، إذ يحتمل أن يكون ﴿خَيْرٌ﴾ اسم تفضيل، أصله: أخير ووزنه (أفعل)، والمعنى: الجهاد والإيمان خير من أموالكم وأنفسكم ومن كل عمل.

يقول ابن عطية: "وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أشار إلى الجهاد والإيمان، و ﴿خَيْرٌ﴾ هنا يحتمل أن يكون للتفضيل، فالمعنى من كل عمل، ويحتمل أن يكون إخباراً أن هذا خير في ذاته ونفسه"^(٢).

فالآية جمعت معنيين بكلمة واحدة أحدهما معجمي، والآخر عائد لدلالة الصيغة الصرفية، وكلاهما مراد، وهما عام وخاص، إذ الخيرية المطلقة في الدلالة المعجمية تشمل معنى التفضيل وغيره.

(١) الجواهر الحسان: ٣٩٧/٢.

(٢) المحرر الوجيز: ٣٠٤/٥.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٦٧/٣٠].

في وصف الماء بأنه ﴿مَعِينٍ﴾ وجهان:

أولهما مشتق من (الإمعان)، أي: الماء الجاري الممعن في الجري. والثاني تدل عليه الصيغة والاشتقاق، فـ ﴿مَعِينٍ﴾ (فعليل) بمعنى (مفعول) من (العين)، أي: الماء الظاهر الذي تراه العين، وتناله الدلاء. فأصله معيون، ثم جرى عليه ما جرى على (مبيع).

يقول الرازي: "والمعين الظاهر الذي تراه العيون، فهو من مفعول العين كمبيع، وقيل: المعين الجاري من العيون، من الإمعان في الجري، كأنه قيل: ممعن في الجري" ^(١).

ويقول الشوكاني: "أي: ظاهر تراه العيون، وقيل: هو من معن الماء، أي: كثر. وقال قتادة والضحاك: أي: جار" ^(٢).

فالكلمة تتسع لمعان عدة كالجريان والظهور والكثرة، إضافة إلى صيغتها التي تشير إلى اسم المفعول، وكل ذلك صحيح ومراد، وله ما يؤيده في المعاجم وعند المفسرين.

ثالثاً - تعدد معاني الصيغة الصرفية:

إن الصيغة الصرفية وما تحمله من معان مختلفة كانت من الوسائل التي اعتمدها الخطاب القرآني في توسيع الدلالة لكثير من المفردات القرآنية؛ وذلك بأن ترد الكلمة دالة على معينين أو أكثر، يُردُّ كل واحد

(١) التفسير الكبير: ٦٧/٣٠.

(٢) فتح القدير: ٢٦٦/٥.

إلى معنى من المعاني التي تحملها الصيغة الصرفية. وفيما يلي نستعرض نماذج منها:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥/١٠].

صيغة (فِعال) في قوله تعالى ﴿ضِيَاءً﴾ تحتمل المصدرية وتحتمل الجمع، كسياط وحياض جمع سوط وحوض.

يقول الرازي: " الضياء لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط وحوض وحياض، أو مصدر ضاء يضاء ضياءً، كقولك: قام قياماً وصام صياماً، وعلى أي الوجهين حملته فالمضاف محذوف، والمعنى: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور، ويجوز أن يكون من غير ذلك؛ لأنه لما عظم الضوء والنور فيهما جعلنا نفس الضياء والنور، كما يقال للرجل الكريم إنه كرم وجود"^(١).

قال تعالى: ﴿مَنْ وَرَّأَيْهِ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۖ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٦-١٧].

صيغة (يتفعّل) في قوله تعالى ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ فيها أربعة احتمالات:

أحدها: أنه مطاوع (جَرَّعْتَهُ)، نحو: عَلَّمْتُهُ فَتَعَلَّمَ.

الثاني: أنه يكون للتكلف، نحو: تَحَلَّمَ، أي: يَتَكَلَّفُ جَرْعُهُ.

الثالث: أنه دالٌّ على المهلة، نحو تَفَهَّمْتُهُ، أي: يتناوله شيئاً فشيئاً بالجرع كما يفهم شيئاً فشيئاً بالتفهم.

الرابع: أنه بمعنى جرع المجرد، نحو: عَدَدْتُ الشَّيْءَ وَتَعَدَّيْتُهُ. والمعنى: يتحسّاه ويشربه لا بمرة واحدة، بل يجرعه لِمَرَّاتِهِ وَحَرَارَتِهِ.

جاء في البحر المحيط: "وتجرّع تفعل، ويحتمل هنا وجوهاً: أن يكون للمطاوعة، أي: جرّعه فتجرّع، كقولك: علمته فتعلم. وأن يكون للتكلف، نحو: تحلم، وأن يكون لمواصلة العمل في مهلة، نحو: تفهم، أي: يأخذه شيئاً فشيئاً. وأن يكون موافقاً للمجرد، أي: يجرّعه، كما تقول: عدا الشيء وتعدّاه" (١).

والتجرّع في الآية يدلّ على أن الكافر في جهنم يجرع ذاك الماء الصديد بتكلف لا يخلو من تمهل، والكلمة تجمع بصيغتها المعنيين معاً، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ١٧/٥٩].

ومعنى ﴿مُبْصِرَةً﴾ واضحة الدلالة، وصيغة اسم الفاعل هنا تفيد أحد أمرين:

أولهما: على النسب، أي: ذات إبصار، يبصرها المتأمل ويتبصر بها، وتفيده أنها آية.

والثاني: على أنها اسم فاعل من (أبصر)، والهمزة للتعدية، أي: جعل غيره مبصراً وذا بصيرة.

جاء في روح المعاني: "﴿مُبْصِرَةً﴾ على صيغة اسم الفاعل حال من الناقة، والمراد: ذات إبصار أو ذات بصيرة يبصرها الغير ويتبصر بها، فالصيغة للنسب، أو جاعلة الناس ذوي بصائر على أنه اسم فاعل من أبصره، والهمزة للتعدية، أي: جعله ذا بصيرة وإدراك. ويحتمل أن يكون إسناد الإبصار إليها مجازاً وهو في الحقيقة حال من يشاهدها" (٢).

(١) البحر المحيط: ٤٠٢/٥-٤٠٣.

(٢) روح المعاني: ١٠٤/١٥.

وكلا المعنيين محتمل، والجمع بينهما غير بعيد، فهي ذات إِبصار،
يَتَبَصَّرُ بها المتأمل، فتجعله ذا بصيرة، والمعنيان مستفادان بكلمة واحدة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم
بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا
أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١/٦٠].

صيغة ﴿أَعْلَمُ﴾ تحتل دالتين: الأولى: يجوز أن تكون أفعَل تفضيل،
أي: أنا أعلم من كل أحد بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ. والثانية: يحتمل أن
تكون فعلاً مضارعاً عُدِّي بالباء، كما تقول: علمت بكذا، وعلمت كذا
فتكون زائدة.

يقول ابن عطية: "قوله تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ يحتمل أن يكون (أفعَل)،
ويحتمل أن يكون فعلاً؛ لأنك تقول علمت بكذا فتدخل الباء" (١).
والصيغة مترددة بين المعنيين.

قال تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤/١١٤].

جاء في لسان العرب: "الْوَسْوَسةُ والْوَسْوَاسُ الصوت الخفي من
ريح... والْوَسْوَاسُ (بالفتح) الاسم، مثل: الزَّلْزال والزَّلْزال، والْوَسْوَاس
بالكسر المصدر، والْوَسْوَاس بالفتح هو الشيطان" (٢).

ويقول ابن هشام: "يجوز فتح أول المضاعف، والأكثر أن يُعْنَى
بالمفتوح اسمُ الفاعِلِ، نحو ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ أي: المَوْسُوسِ" (٣).

(١) المحرر الوجيز: ٢٩٤/٥.

(٢) لسان العرب: (وسس).

(٣) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ٢٣٩/٣، ابن هشام الأنصاري، جمال

يستفاد مما جاء في اللسان ومما ذكره ابن هشام أن صيغة «الْوَسْوَاسِ» تحتمل أن تكون اسم فاعل، أي: الْمَوْسُوسِ، وأن تكون مصدراً بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة، والمراد به الشيطان، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه؛ لكثرة اشتغاله بها، والمراد ذو الوسواس.

والمتأمل في الصيغة والمعنى يجد في تسمية الشيطان بهذا الاسم شيئين: أولهما: ما ذكره الألوسي من معنى المبالغة في صيغة (فعل) يقول: "لها مصدران مطردان فعللة وفعلال بالكسر وهو أقيس. والفتح شاذ لكنه كثر في المكرر كتمتام وفأفاء ويكون للمبالغة" (١)، وما ذكره الرازي من المبالغة في تسمية الشيطان بالمصدر، قال: "سمي بالمصدر، كأنه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنعتها وشغله الذي هو عاكف عليه، نظيره قوله ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦/١١]" (٢).

والثاني: معنى تكرار الفعل وقد ذكره الرازي كذلك بقوله: "يقال: وسوس إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره" (٣)، وتكرار الوسوسة من شأن الشيطان لا ينفك عنه.

وبهذا نرى دقة اختيار الكلمة في الآية الكريمة، واتساعها لمعنيين، فـ (الوسواس) تحمل في طيات صيغتها دلالاتي المبالغة والتكرار معاً، ولو عبّر باسم الفاعل (الموسوس) لأفاد التكرار فقط، ولم يفد معنى المبالغة المستفاد من جانبيين، من صيغة المصدر نفسها، ومن تسمية الشيطان بالمصدر للمبالغة أيضاً.

= الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف (٧٦١هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجيل، بيروت، ط ٥، ١٩٧٩م.

(١) روح المعاني: ٢٨٦/٣٠.

(٢) التفسير الكبير: ١٨١/٣٢.

(٣) نفسه: ٣٨/١٤.

رابعاً - دلالة الصيغة الصرفية على معنيين من جذر واحد:

المفردة اللغوية إذا ما سبكت في صيغة صرفية معينة قد تدلُّ على معنيين مختلفين، رغم اشتقاقهما من الجذر اللغوي نفسه، وقد اعتمد الخطاب القرآني هذا الأسلوب في توسيع الدلالة لبعض المفردات القرآنية؛ وذلك بأن ترد الكلمة في قالب صرفي دالة على معنيين مختلفين ولكنهما من جذر واحد. وفيما يلي نستعرض نماذج منها:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤/٢].

قوله تعالى: ﴿انْظُرْنَا﴾ في الآية الكريمة يحتمل أوجهاً:

أحدها: أن يُراد به النظر إلى الشيء، فحذف الجار، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥/٧]، أي: من قومه. وكذلك ﴿انْظُرْنَا﴾ أي: انظر إلينا.

وثانيها: أن يُراد به التأمل والتدبر، ومنه قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ [الإسراء: ٤٨/١٧]، والمعنى: تأمل حالنا وترقّب بنا.

وثالثها: أن يكون النظر بمعنى الانتظار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣/٣٣]، أي: غير منتظرين إدراكه وبلوغه، وعلى هذا الوجه يكون ﴿انْظُرْنَا﴾ معناه انتظرنا ولا تعجل علينا.

يقول البيضاوي: " ﴿انْظُرْنَا﴾ بمعنى انظر إلينا. أو انتظرنا، من نظره إذا انتظره. وقرئ أنظرنا من الإنظار، أي: أمهلنا لنحفظ"^(١).

وغير بعيد أن تكون هذه المعاني جميعها مرادة في الآية، فبدل أن يقول: انظر إلينا وترفق بحالنا ولا تعجل علينا، جمعها بقوله ﴿انْظُرْنَا﴾

(١) أنوار التنزيل: ٣٧٥/١.

فكسبها بأوجز عبارة ومن أخصر سبيل، وقد أشار الثعالبي إلى شيء من هذا القبيل بقوله: "﴿أَنْظُرْنَا﴾ معناه: انتظرنا وأمهل علينا، ويحتمل أن يكون المعنى: تَفَقَّدْنَا مِنَ النَّظَرِ، والظاهرُ عُنْدِي استدعاءُ نظر العَيْنِ المَقْتَرِنِ بتدبُّر الحال" ^(١)، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿لَا تُضَاكَّرْ وَلَا تَنْصَرَّ وَلَا يُولَدُ لَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٢٣/٢].

قوله تعالى: ﴿لَا تُضَاكَّرْ﴾ يحتمل أن يكون أصله -بعد فكّ التضعيف- (لا تضارَر)، وهو مبني للمجهول. ويحتمل كذلك أن يكون (لا تضارِر)، وفاعله (وَالِدَةٌ)، والمفعول محذوف.

يقول الرازي: "قوله ﴿لَا تُضَاكَّرْ﴾ يحتمل وجهين كلاهما جائز في اللغة، وإنما احتمل الوجهين نظراً لحال الإدغام الواقع في ﴿تُضَاكَّرْ﴾ أحدهما: أن يكون أصله لا تضارِر بكسر الراء الأولى، وعلى هذا الوجه تكون المرأة هي الفاعلة للضرار. والثاني: أن يكون أصله لا تضارَر بفتح الراء الأولى، فتكون المرأة هي المفعولة بها الضرار" ^(٢).

وفي الآية نهى عن إيقاع الضرار بين الوالدة والمولود له ^(٣)، إذ فيها نهى للرجل أن يضارّها بولدها، ونهى للمرأة أيضاً أن تضارّه بولده.

والمضارة من جهة الرجل تكون بأن لا تُعطى أجراً كما تُعطى الأجنبية، وبأن ينزع الصبي منها ويمنعها من إرضاعه، وبأن تكره على إرضاعه؛ لأن ذلك ليس بواجب عليها.

والمضارة من جهتها تكون بأن تأبى إرضاع ولدها؛ ليشق على أبيه، وبأن تلقي الصبي إلى أبيه بعدما ألفها تضارّه بذلك، وبأن تشتط عليه

(١) الجواهر الحسان: ٩٤/١.

(٢) التفسير الكبير: ١٠٣/٦-١٠٤.

(٣) انظر: معالم التنزيل: ٢٧٨/١.

وتطلب فوق حقها، وبأن تمنعه من رؤية ولده والإمام به، أو تريد ألا يطيعه.

والخلاصة أن الآية الكريمة جمعت حكمين شرعيين بأوجز عبارة، باستثمار التضعيف في الكلمة أحسن استثمار، ولو عبّر بالكلمة ذاتها من دون تضعيف لا تحتاج لعبارتين بدل الواحدة، كأن يقول: لَا تُضَارَرِ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودَ لَهُ بِوَلَدِهِ، وَلَا تُضَارَرِ وَالِدَهُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودَ لَهُ بِوَلَدِهِ، وفي ذلك من التطويل والتكرير ما يتنافى مع الفصاحة والبلاغة ولا يخفى على ذي لب. أضف إلى ذلك ما أشرنا إليه من أنواع الضرار المختلفة التي شملها جميعاً بلفظ «لَا تُضَارَرُ» إجمالاً واختصاراً.

قال تعالى: «وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَرُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَعُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [البقرة: ٢/٢٨٢].

ومثل ذلك قوله تعالى: «وَلَا يُضَارَرُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ»، فإن الفعل «يُضَارَرُ» يحتمل أن يكون مبنياً للمعلوم، فيكون الكاتب والشهيد قد نهيا أن يضاراً أحداً، ويحتمل أن يكون مبنياً للمجهول فيكون النهي عن إلحاق الضرر بهما، ويقول أبو حيان تأويل أوجه الضرر: "بأن يزيد الكاتب في الكتابة، أو يحرف. وبأن يكتم الشاهد الشهادة، أو يغيرها أو يمتنع من أدائها... وقال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء: بأن يقولوا: علينا شغل ولنا حاجة. واحتمل أن يكون مبنياً للمفعول، فنهى أن يضارهما أحد بأن يُعنتا، ويشق عليهما في ترك أشغالهما، ويطلب منهما ما لا يليق في الكتابة والشهادة. قال معناه أيضاً ابن عباس، ومجاهد، وطاووس، والضحاك، والسدي^(١).

(١) البحر المحيط: ٣٧٠/٢.

والمعنيان مرادان جميعاً، والله أعلم، ولو أراد أحد المعنيين لعينه بفكّ التضعيف كما فكّه في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣/٨]، ولكنه أثر التعبير بالتضعيف ليشمل المعنيين جميعاً، فيقع النهي على الكاتب والشهيد وعلى من يدعوهما.

يقول الزركشي: " قد يكون اللفظ مشتركاً بين حقيقتين أو حقيقة ومجاز ويصح حمله عليهما جميعاً، كقوله تعالى ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، قيل المراد (يُضَارُّ) وقيل (يُضَارَرُ)، أي: الكاتب والشهيد لا يُضَارُّ فيكتم الشهادة والخط وهذا أظهر، ويحتمل أن من دعا الكاتب والشهيد لا يُضَارُّه فيطلبه في وقت فيه ضرر... نعم يجوز أن يريد المتكلم به جميع المحامل ولا يستحيل ذلك عقلاً"^(١).

قال تعالى: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥/٥].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ يحتمل أن يكون مشتقاً من التصدَّق، كما يحتمل أن يكون من الصدق.

أما الأول -وهو معنى التَّصَدَّقَ- فقد بينّا سابقاً أن الضمير ﴿لَهُ﴾ في قوله: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ يحتمل أن يكون عائداً إلى العافي، أي إن المجروح أو ولي المقتول إذا عفا كان ذلك كفارة له. أو عائداً إلى المعفو عنه، أي إن المجني عليه إذا عفا عن الجاني صار ذلك العفو كفارة للجاني، والعافي أجره على الله تعالى.

وأما الاحتمال الثاني وهو أن يكون اشتقاق ﴿تَصَدَّقَ﴾ من الصدق

فبيّنه أبو حيان بقوله: "وقيل: المتصدّق هو الجاني، والضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود عليه. والمعنى: إذا جنى جان فجهل وخفي أمره فتصدّق هو بأن عرّف بذلك ومكّن من نفسه، فذلك الفعل كفارة لذنبه. وقال مجاهد: إذا أصاب رجل رجلاً ولم يعلم المصاب من أصابه فاعترف له المصيب فهو كفارة للمصيب. وأصاب عروة عند الركن إنساناً، وهم يستلمون، فلم يدر المصاب من أصابه، فقال له عروة: أنا أصبتك، وأنا عروة بن الزبير، فإن كان يلحقك بها بأس فأنا بها. وعلى هذا القول يحتمل أن يكون ﴿تَصَدَّقَ﴾ تفعلّ من الصدقة، ويحتمل أن يكون من الصدق^(١).

وبهذا نجد أن الآية الكريمة اتسعت لثلاثة معان؛ اثنان منهما يعودان لمعنى (التصدّق) مع مراعاة اختلاف عائد الضمير، والثالث يعود لمعنى (الصدق)، وكل ذلك مراد في الآية الكريمة بكلمة واحدة، ولو قال: فَمَنْ صَدَقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، لقصر الآية على المعنى الأخير دون المعنيين الأولين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤/٦].

قوله تعالى: ﴿تُوعَدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤/٦]، وفي قوله ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥١/٥]، يحتمل أن يكون مضارع وعد وعداً بالخير، وأن يكون مضارع أوعد وعيداً بالشر. يقول القرطبي: "قوله تعالى ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ يحتمل أن يكون من (أوعدت) في الشر. والمصدر: الإيعاد، والمراد: عذاب الآخرة. ويحتمل أن يكون من (وعدت) على أن يكون المراد الساعة التي في مجيئها الخير والشر فغلب الخير. روي عن الحسن^(٢).

(١) البحر المحيط: ٥٠٩/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٨٨/٧.

ويقول أبو حيان: "فتلخص في قوله ﴿مَا تُعْذِرُونَ﴾ العموم، ويخرج منه ما خرج بالدليل. أو يراد به الخصوص من الحشر أو النصر أو الوعيد أو الوعد، أي: بلازمهما من الثواب أو العقاب، أو مجموعهما ستة أقوال" ^(١).

فقد جمعت الآية الوعد والوعيد بكلمة واحدة، وكلاهما مراد في الوقت نفسه، وكلاهما، الوعد بالثواب والوعيد بالعقاب، صادق وآت لا محالة.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٩٠].

في قوله تعالى ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون وزنه (فَعَّل) مضعفاً دالاً على التكلف، والمعذر من عذر في الأمر إذا قصر فيه ثم تكلف العذر يؤهم به، ولا عذر له.

والثاني: أن يكون وزنه (افْتَعَلَ)، والأصل (اعتذر)، فأدغمت التاء في الدال بأن قلبت تاء الافتعال ذالاً، ونُقِلَت حركتها إلى الساكن قبلها، وهو العين.

يقول ابن عاشور: "يختلف التقدير في قوله ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ فإن كانوا المحققين في العذر فتقدير ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ أن أصله المعتذرون من (اعتذر) أدغمت التاء في الدال لتقارب المخرجين لقصد التخفيف، كما أدغمت التاء في الصاد في قوله ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩/ ٣٦]، أي: يختصمون.

وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فتقدير ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ أنه اسم فاعل من عَذَّر بمعنى تكلف العذر. فعن ابن عباس: لعن الله المعتذرين. قال الأزهري: ذهب إلى أنهم الذين يعتذرون بلا عذر، فكأن الأمر عنده أن

المعذر بالتشديد هو المظهر للعذر اعتلالاً وهو لا عُذر له" (١).

فالآية جمعت الفريقين، الصادقين في أَعذارهم والكاذبين، بكلمة واحدة، وقد عدَّ ابن عاشور دقة الاختيار لهذه الصيغة من لطائف الكتاب العزيز فقال: "ويجوز أن يكون اختيار صيغة (المعذرين) من لطائف القرآن لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه" (٢).

قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فِيهَا لَا يَكُونُ لَكُمْ رَيْبُكُمْ تُكَذَّبَانِ ۖ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٦-٤٨].

صيغة (الأفنان) في قوله تعالى ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ يحتمل أن تكون جمع فنن، وهو الغصن، فكأنه مدحها بظلالها وتكاثر أغصانها. ويحتمل أن تكون جمع فَنّ، فكأنه مدحها بكثرة أنواع الفاكهة والنعيم.

يقول ابن الجوزي: "﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنها الأغصان، وهي جمع فَنن، وهو الغُصن المستقيم طويلاً، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، وعطية، والفراء، والزجاج. والثاني: أنها الألوان والضروب من كل شيء، وهي جمع فَنن، وهذا قول سعيد بن جبير. وقال الضحاك: ذواتا ألوان من الفاكهة" (٣).

فصيغة الجمع هذه جمعت المعنيين معاً، وكلاهما مقصود ومراد، إذ إن أشجار الجنة أغصان عظيمة كثيرة الإبراق والإثمار، وفيها من أصناف الفاكهة ما لا يعلمه إلا الله، وقد أحسن عطاء إذ جمع بين المعنيين في الآية، يقول ابن الجوزي: "وجمع عطاء بين القولين، فقال: في كل غصن فُنون من الفاكهة" (٤).

(١) التحرير والتنوير: ١٧٧/١٠.

(٢) نفسه: ١٧٧/١٠.

(٣) زاد المسير: ١٢٠/٨.

(٤) نفسه: ١٢٠/٨.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحَرِّمُونَ ﴿الواقعة: ٥٦/٦٣-٦٧﴾.

قوله تعالى: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ على وزن (تفعل)، ومن معاني هذه الصيغة التجنب والترك، نحو: تأثم وتحرج، أي: تجنب الإثم والحرَج، وكذلك تفكّه تدلُّ على التجنب، والمتجَنَّب في هذه الكلمة شيئان، هما الفاكهة والفاكهة.

أما المعنى الأول وهو تجنب الفاكهة فيقول فيه أبو حيان: "ومعنى ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: تطرحون الفاكهة عن أنفسكم وهي المسرة، ورجل فكه: منبسط النفس غير مكترث بشيء، وتفكّه من أخوات تحرج وتحوَّب" (١).

وأما المعنى الثاني، وهو تجنب الفاكهة فقد أشار إليه البيضاوي بقوله: "والفكه التنقل بصنوف الفاكهة وقد استعير للتنقل بالحديث" (٢).

والحق أن كلا المعنيين مراد في الآية الكريمة، وبين تجنُّب الفاكهة وتجنُّب الفاكهة ترابط وثيق، إذ أكل الفاكهة لا يكون إلا حين السرور وانبساط النفس، يبيّن هذا ابن عاشور بقوله: "الفاكهة: اسم لما يؤكل تفكُّهاً لا قوتاً، مشتقة من فكه كفرح، إذا طابت نفسه بالحديث والضحك، قال تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾؛ لأن أكل ما يلدّ للأكل وليس بضروري له إنما يكون في حال الانبساط" (٣).

(١) البحر المحيط: ٢١١/٨.

(٢) أنوار التنزيل: ٢٩٠/٥.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٦٢/٢٧.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحَرِّمُونَ ﴿١٧﴾
[الواقعة: ٥٦/٦٣-٦٧].

صيغة اسم المفعول ﴿لَمُعْرِضُونَ﴾ تجمع معنيين محتملين:

أولهما: أن تكون اسم مفعول مشتقاً من (الغرام)، والغَرَامُ: الشر الدائم والعذاب الشديد. يقول الراغب: "الغرام ما ينوب الإنسان من شدة ومصيبة، قال: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٥]، من قولهم هو مغرم بالنساء أي يلازمهن ملازمة الغريم"^(١)، والمعنى على ذلك: إنا لمعذبون عذاباً شديداً ملازماً.

والثاني: أن تكون مشتقاً من (الغرم)، والغرم: ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية منه أو خيانة^(٢). والمعنى: إنا لمحملون الغرم في النفقة، مُلْزَمُونَ غرامة ما أنفقنا.

يقول الثعالبي: "والمعنى يحتمل أن يكون ﴿إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ من الغرام وهو أشد العذاب. ويحتمل إنا لمحملون الغرم، أي: غرمننا في النفقة وذهب زرعننا"^(٣).

وجاء في البحر: "﴿إِنَّا لَمُعْرِضُونَ﴾ أي: معذبون من الغرام، وهو أشد العذاب، قال:

إِنْ يَعَذَّبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يَعْطُ جَزِيلًا فَإِنَّهُ لَا يَبَالِي
أَوْ لِمَحْمُولُونَ الْغَرَمِ فِي النِّفْقَةِ، إِذْ ذَهَبَ عَنَّا"^(٤).

(١) المفردات: (غرم).

(٢) نفسه: (غرم).

(٣) الجواهر الحسان: ٢٥٥/٤-٢٥٦.

(٤) البحر المحيط: ٢١١/٨.

ويقول الزمخشري: "﴿إِنَّا لَمُعْرَمُونَ﴾ أي: لُمُلزُمُونَ غرامة ما أنفقنا، أو مُهْلِكُونَ لهلاك رزقنا، من الغرام وهو الهلاك" (١).

فالآية باختيار صيغة اسم المفعول حققت معنيين مرادين بكلمة واحدة، فهم غرموا زرعهم وما أنفقوا فيه من مال وجهد ووقت، وسيلأزهمهم العذاب الشديد على ما فعلوا، أو بجمع المعنيين بأنهم عذبوا بذهاب أموالهم بغير عوض، ولو كان التعبير بغير هذه الصيغة لما حققت الجمع بين هذين المعنيين.

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّرَاقَ ۖ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۖ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ وَاللَّفَتِ الْسَاقُ ۖ بِالْسَاقِ ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۖ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ۖ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٢٦-٣٢].

قال جمهور المتأولين: هذه الآية كلها إنما نزلت في أبي جهل بن هشام (٢). وقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ يحتمل من حيث الاشتقاق معنيين، ولكل احتمال ما يؤيده:

الأول: أن يكون من التصديق ضد التكذيب، أي: ما آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ﴾ في مقابل ﴿فَلَا صَدَقَ﴾.

والثاني: أن يكون من الصدقة بمعنى الزكاة، ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾، أي: فلا تصدَّقَ بماله، ويشهد لهذا المعنى الاقتران المعهود بين الصلاة والزكاة في ستة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، كقوله تعالى مثلاً: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣/٢].

(١) الكشف: ٤/٤٦٤.

(٢) المحرر الوجيز: ٥/٤٠٦.

يقول البيضاوي : " ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ ما يجب تصديقه، أو فلا صدَّق ماله، أي: فلا زكاه" (١).

ويقول الزمخشري : "أي: لا يؤمن بالبعث، فلا صدق بالرسول والقرآن، ولا صلَّى. ويجوز أن يراد: فلا صدَّق ماله، بمعنى: فلا زكاه" (٢).

والخلاصة أن قوله تعالى : ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ نفى لمعنيين في وصف أبي جهل، هما نفى التَّصَدِيق ونفى التَّصَدُّق، بكلمة واحدة. وقد جُمع هذان المعنيان: نفى التَّصَدُّق وإثبات الكفر الذي هو نقيض التَّصَدِيق، في موضع آخر من كتاب الله، هو قوله تعالى : ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٤١-٦-٧].

قال تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨/٩٥].

عبَّرت الآية الكريمة باسم التفضيل (أَحْكَم) لتدل على معنيين محتملين بل مقصودين معاً، هما :

الأول: اشتقاق (أَحْكَم) من الحكمة، فيكون معنى ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ : أَلَيْسَ اللهُ أعظم ذوي الحكمة وأحسنهم تدبيراً، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحریم: ٢/٦٦].

الثاني: اشتقاق (أَحْكَم) من الحكم بمعنى القضاء، فيكون المعنى : أَلَيْسَ اللهُ بأقضى الحاكمين، وقد قال تعالى : ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣/٢].

يقول ابن عاشور : " (أحكم) يجوز أن يكون مأخوذاً من الحكم،

(١) أنوار التنزيل : ٤٢٤/٥.

(٢) الكشف: ٦٦٤/٤.

أي: أفضى القضاة، ومعنى التفضيل أن حكمه أسدّ وأنفذ. ويجوز أن يكون مشتقاً من الحكمة. والمعنى: أنه أقوى الحاكمين حكمةً في قضاؤه بحيث لا يخالط حكمه تفريط في شيء من المصلحة^(١).

فجمع بقوله: ﴿بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ معنيين من جذر لغوي واحد، هما الحكم والحكمة، أي: أفضى القضاة، وأحكم القضاة، ولو قال: أفضى الحَاكِمِينَ، لدلّ على معنى واحد.

خامساً - دلالة صيغة الفعل على زمنين، أو على لازم ومتعد:

يقسم الفعل عادة إلى ثلاثة أقسام من حيث الزمن: ماض وحاضر ومستقبل، وإلى قسمين من حيث اللزوم والتعدي، بيد أن ثمة أفعالاً في العربية تحتمل الأزمنة الثلاثة مجتمعة أو متفرقة إذا ما أحكم نظمها في بعض التراكيب اللغوية، وأفعالاً أخرى تؤدي معنيين، فتستعمل لازمة أحياناً ومتعدية، وقد أفاد الخطاب القرآني من النوعين، من اتساع الدلالة الزمنية في الفعل، ومن اتساع الفعل للزوم والتعدي في المعنى، فجمع الغرضين بفعل واحد أحياناً. وفيما يلي نستعرض نماذج من ذلك:

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧/٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ يحتمل دالتين مختلفتين بالنظر إلى معنى الهمزة في الفعل ﴿أَضَاءَتْ﴾، أولهما: أن تكون الهمزة للتعدية، فتُعرب ﴿مَا﴾ على هذا مفعولاً به. والثاني: أن تكون الهمزة للصيرورة، فعلى هذا تكون ﴿مَا﴾ ظرفاً للإضاءة.

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/٣١٨.

يقول ابن عاشور: " (أضاء) يجيء متعدياً، وهو الأصل؛ لأن مجردة (ضاء) فتكون حينئذٍ همزته للتعدية، كقول أبي الطمحان القيني:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتى ثقب الجزع ثاقبه
ويجيء قاصراً بمعنى (ضاء) فهمزته للصيرورة، أي: صار ذا ضوء
فيساوي (ضاء)، كقول امرئ القيس يصف البرق:

يُضيء سنّاه أو مصابيح راهب أمال السليط بالذبال المفتل
والآية تحتلها، أي: فلما أضاءت النار الجهات التي حوله، وهو
معنى ارتفاع شعاعها وسطوع لهبها، فيكون ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ موصولاً مفعولاً
لـ ﴿أَضَاءَتْ﴾، وهو المتبادر. وتحتمل أن تكون من أضاء القاصر، أي
أضاءت النار، أي: اشتعلت وكثر ضوءها في نفسها، ويكون ﴿مَا حَوْلَهُ﴾
على هذا ظرفاً للنار، أي: حصل ضوء النار حولها غير بعيد عنها^(١).

فالفعل يحتمل اللزوم والتعدي، يقال: أضاءت النار بنفسها وأضاءت
غيرها، والمعنيان صحيحان ولعلهما مرادان في الوقت نفسه، ولو عبّر
بالفعل الثلاثي: ضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، لما أفاد غير معنى واحد.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ [البقرة: ١٨٤/٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨/٢]، يحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون (من) شرطية، ويكون الفعل ماضياً في لفظه
مستقبلاً في معناه. والثاني: أن تكون موصولة، و﴿تَطَوَّعَ﴾ ماضياً في لفظه
ومعناه، صلة الموصول.

(١) نفسه: ٣٠٤/١.

جاء في مشكل إعراب القرآن: "قوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ يحتمل أن تكون للشرط، فموضع ﴿تَطَوَّعَ﴾ جزم، ومعناه الاستقبال، وجواب الشرط ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾. ويحتمل أن تكون (مَنْ) بمعنى الذي، فيكون ﴿تَطَوَّعَ﴾ فعلاً ماضياً على بابهِ، ودخلت الفاء في ﴿فَهُوَ﴾ لما في الذي من معنى الإبهام^(١).

والوجهان مقصودان في الآية الكريمة، فهي تشمل من تطوَّع في الماضي ومن سيتطوَّع في المستقبل فَهُوَ خَيْرٌ لَهُمْ، فالمعنيان محتملان ومقصودان في الوقت نفسه وبلفظ واحد.

قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٥].

الفعالان في الآية الكريمة ﴿عَرَّضْتُمْ﴾ و ﴿أَكْنَنْتُمْ﴾ كل منهما جمع دلالتين زمانيتين:

الأولى: أن يكونا ماضيين على أصلهما، بمعنى نفى الجناح على ما كان منكم من تعريض أو إكنان.

والثانية: أن يكونا للدلالة على الاستقبال، أي: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَعَرَّضُونَ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ تَكُنُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ.

فالفعلان في الآية يحتملان الماضي والاستقبال؛ لأن الآية في الأحكام^(٢)، والأحكام تضبط ما سيقع من أفعال العباد، فالآية نفت الجناح بعبارة واحدة عما كان وعما سيكون من التعريض بالخطبة أو الإكنان في النفس.

(١) مشكل إعراب القرآن: ١/١١٤-١١٥.

(٢) انظر: معاني النحو: ٣/٢٧٤.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾
[آل عمران: ٣/٣٢].

الفعل في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّوْا﴾ في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (١١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: ٣/٦١-٦٣]، الفعل في الآيتين يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون على لفظه فعلاً ماضياً مسنداً لضمير الغائب، والمعنى: فإن أعرضوا عن قبول الطاعة.

والثاني: أن يكون مضارعاً، والأصل (تَتَوَلَّوْا)، ويكون الكلام جارياً على نسق واحد، وهو الخطاب، وحذف إحدى التاءين تخفيفاً كما في قوله تعالى: ﴿تَزَوَّجُوا عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ١٨/١٧].

يقول أبو حيان: "يحتمل أن يكون ﴿تَوَلَّوْا﴾ ماضياً، ويحتمل أن يكون مضارعاً حذفت منه التاء، أي: فإن تتولوا، والمعنى: فإن تولوا عما أمروا به من اتباعه وطاعته فإن الله لا يحب من كان كافراً" (١).

ففي الآية احتمالان الماضي مع الغائب، والمضارع مع المخاطب، والحق أن كليهما مراد، والآية تشمل الغائبين والمخاطبين في الماضي والحاضر، ولو قال (تَتَوَلَّوْا) لقيد المعنى بوجه واحد، ولكنه لما أراد جمع المعنيين أثر الصيغة الاحتمالية على الصيغة القطعية، فقال: ﴿تَوَلَّوْا﴾.

(١) البحر المحيط: ٤٤٩/٢.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ لَمْ تَكُنْ آرِضٌ بِاللَّهِ وَسِعَةً فَهُمْ أَجْرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ سَعَةً مِصْرًا﴾ [النساء: ٩٧/٤].

وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً، ويحتمل أن يكون مستقبلاً على معنى (توفاهم) فحذفت إحدى التاءين، وتكون في العبارة إشارة إلى ما يأتي من هذا المعنى في المستقبل.

يقول الألوسي: "﴿تَوَفَّيْنَاهُمْ﴾ يحتمل أن يكون ماضياً، وتركت علامة التأنيث للفصل؛ ولأن الفاعل غير المؤنث حقيقي. ويحتمل أن يكون مضارعاً، وأصله (توفاهم) فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً، وهو لحكاية الحال الماضية. ويؤيد الأول قراءة من قرأ (توفتهم). والثاني قراءة إبراهيم (توفاهم) بضم التاء على أنه مضارع وفيت، بمعنى أن الله تعالى يوفي الملائكة أنفسهم فيتوفونها. أي: يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. وإلى ذلك أشار ابن جني. والمراد من التوفي قبض الروح" (١).

والمعنيان، الماضي والمستقبل، مرادان ويتسع لهما لفظ الفعل، ولو أراد تخصيص المعنى الأول فقط لأنث الفعل فتعين الماضي، ولو أراد الثاني لما حذف التاء فتعين المستقبل، ولكنه أرادهما معاً بلفظ واحد فأتى بالفعل على هذه الصيغة الاحتمالية بالتذكير والحذف.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢/٩].

الفعل في العربية إن كان بعد أدوات التحضيض كما في قوله تعالى:

(١) روح المعاني: ١٢٥/٥.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ يدلُّ على زمنين الماضي والمستقبل، إن كانت غاية التحضيض الطلب لا التقريع، جاء في شرح الرضي: "ويحتمل الماضي والاستقبال بعد همزة التسوية،... وكذا بعد حرف التحضيض إذا كان للطلب، لا للتقريع" (١).

وعلى هذا فإن قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾ يجمع الدالتين بفعل واحد، الدالة على ما مضى، وهو المُعَبَّر عنه بالفعل الماضي ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، والدلالة على المستقبل، أي: فَلَوْلَا يَنْفَرُ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ...

قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُكُمْ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١/١٤].

الفاعلان (جزعنا وصبرنا) في الآية الكريمة، والفعل في (وعظت) في قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦/٢٦]، كل من هذه الأفعال تحتمل الماضي والاستقبال، وعلة ذلك أنها جاءت بعد همزة التسوية، يقول السيوطي: "يحتمل الاستقبال والماضي وذلك إذا وقع بعد همزة التسوية، نحو: سواء علي أقمت أم قعدت؛ إذ يحتمل أن يراد ما كان منك من قيام أو قعود، أو ما يكون من ذلك" (٢).

ويقول الرضي: "ويحتمل الماضي والاستقبال بعد همزة التسوية، نحو: سواء علي أقمت أم قعدت، وبعد: (كلما) و(حيثما)؛ لأن في الثلاثة رائحة الشرط" (٣).

(١) شرح الرضي: ٢/٢٥٠.

(٢) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: ١/٤٣، السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، تح: عبد الحميد هندأوي. المكتبة التوفيقية، مصر.

(٣) شرح الشافعية: ٤/١٣.

فالآية الكريمة تحقق المعنيين بلفظ واحد: الماضي كما هو المتبادر من الصيغة، والمستقبل، أي: سَوَاءَ عَلَيْنَا أُنْجِزَ أَمْ نَصْبِرَ مَا لَنَا مِنْ مَّحِيسٍ.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوقًا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾
[الحج: ١/٢٢].

(الزلزلة) في الآية الكريمة مصدر قد يكون لازماً بمعنى تزلزل الساعة، وربما كان متعدياً، أي: زلزال الساعة الناس، يقول العكبري: "قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ الزلزلة: مصدر، يجوز أن يكون من الفعل اللازم، أي: تزلزل الساعة شيء. وأن يكون متعدياً، أي: إن زلزال الساعة الناس، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل في الوجهين" (١).

ولا ريب أن المعنيين مرادان في الآية؛ إذ الزلزلة نفسها شيء عظيم، وزلزلتها الناس كذلك شيء عظيم، فأفادت الآية المعنيين بكلمة واحدة.

(١) التبيان في إعراب القرآن: ١٣٩/٢.